عين المدينة

مجلة نصف شهرية مستقلة / العدد 122 / 16 آب 2018

إذا مات عصفور فقد العالم لحناً

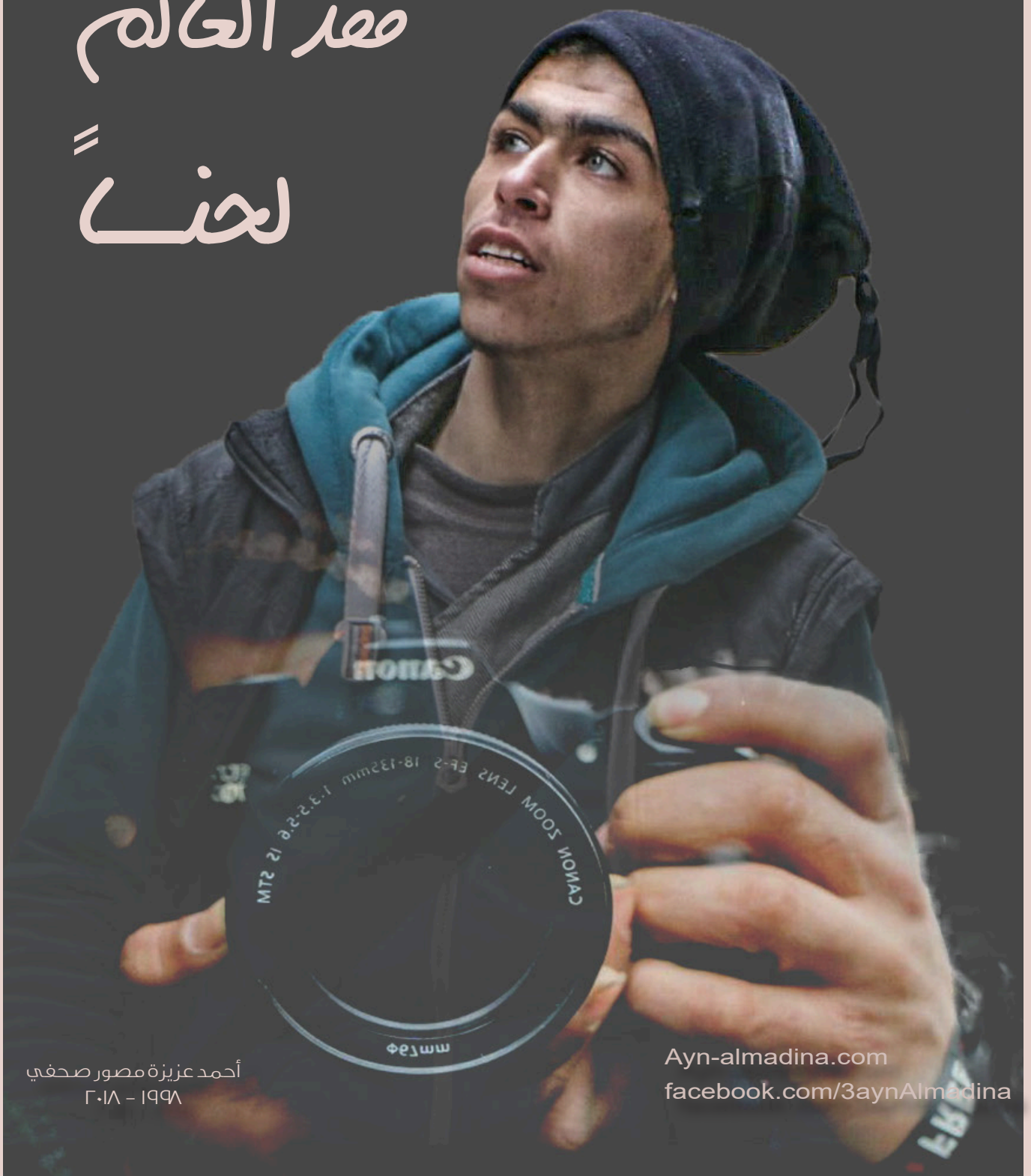

أحمد عزيزة مصور صحفي
١٩٩٨ - ٢٠١٨

Ayn-almadina.com
facebook.com/3aynAlmadina

الافتتاحية

احتمالات إدلب الموصدة ومسارات سوريا المتضاربة

تتجه إدلب، بوضوح لامجال لإنكاره، إلى سيناريوهات صعبة في كلّ وجوهها. وفي الفضاء السياسي- الميداني السوري، الذي يعجّ بالإشاعات المتضاربة، والتسريبات التي تفتقر إلى الدقة، وتقتات على النوايا المبيّتة، سيكون من المتعذر -بكل الأحوال- التوصل إلى قراءة القادم بسهولة تكشف تفاصيله؛ لتبقى، بالرغم من كلّ ذلك، إمكانية استنتاج ما يبدو ضرورياً لمواجهة هذه الاحتمالات السيئة.

بحسب المعلن، والمتداول بتحفظٍ يكفي للنأي عن نظريات المؤامرة، يشخص أمام أدلب احتمالان أساسيان: الأول يتعلق بتكرار صريح لسيناريوهات حلب والغوطة ودرعا، على اختلاف تفاصيلها، وتشابه نهاياتها؛ بينما يتعلق الآخر بتكريس وضعها الراهن، ضمن شرط دولي لايريد انفجاراً جديداً في أزمة اللاجئين، التي قد تقفز بعددهم إلى ستة ملايين في تركيا، بالنظر إلى أنّ المحافظة تضمّ ملايين السوريين الذين لن يجدوا مهرباً من القصف البساطي الروسي، وبراميل وكيماوي بشار الأسد، ووحشية مليشيات إيران السوداء بعمق أجندتها الطائفية الإلغائية، وتكفيريتها المقابلة والمطابقة لآيديولوجيا داعش والنصرة.

لكنّ الوضع في سوريا، وبالرغم من كلّ ادعاءات النظام وحلفائه، مازال شديد السيولة، وهو يرفض بعناد أن يستقرّ على إنتاج معطيات صلبة، تتيح إنتاجاً مقابلاً لصورة مستقبله القريب والبعيد على حد سواء؛ وهذا يعني أنّ احتمال ظهور مسار آخر، طارئ أو معدّ مسبقاً وبقي مغلقاً عن التداول، مازال مطروحاً ولا يجب تجاهل فرصة حدوثه، وابتلاعه لما يعتقد أنهما طريقان لا ثالث لهما.

وبشكل خاص، فإنّ الحالة في إدلب تستجمع كلّ التناقضات والتفاصيل الصغيرة، التي قادت الأمور في حلب والغوطة ودرعا -وقبلها حمص ودمشق نفسها- إلى مساراتها المعروفة، وتركت القضايا مستحيلة الحل في تلك المواقع وذاك التوقيت، لتندفع وتتجمع في إدلب؛ بحيث بات على من يريد حسم الموقف في المحافظة، أن يحلّ دفعة واحدة كلّ مشكلات سوريا في السنوات السابقة منذ انطلاق الثورة، وربما قبلها أيضاً.

ليس لدى النظام، وحلفائه في روسيا وإيران، سوى منطق خطّي وبدائي في مواجهة واقع سوريا، يتمثل بالقتل والتدمير، ثم السيطرة على الأرض بعد تهجير سكانها، مع ترك بقية المعضلات إلى ما بعد تحقق هوسهم بانتهاء الأثر الميداني للثورة على الأرض. لكن هذه المعادلة لن تعمل جيداً في إدلب، حيث باتت كل القوى المحلية والإقليمية والدولية تواجه حسابات بعضها في رقعة صغيرة مزدحمة بالبشر والطرق الموصدة.

3 بعد رسوبه ب"البكالوريا" فراس العراقية ينتقم بمقطع جنسي مصور

5-4 من ضفة إلى أخرى معابر اليوم في دير الزور وجسور الأمس

7-6 في مسكنة حين كشفت العشيرة هشاشة الهندسة البعثية

9 (إذا مات عصفور فقد العالم لحناً) عن أحمد عزيزة الذي نال الشهادتين

11 ماذا حصل في كفريا والفوعة بعد إفراغها؟

14 الحج السوريّ...ديني وسياسي ومنحة تميز

16 عبد القادر الحمو المجنون وجامع الإتاوات في الحسكة

19 وائل ملحم الشرطي الوغد الذي ابتسم له الحظ

في ترتيباته لتقديم الامتحان، لم يحسب فراس الجهام/ العراقية، قائد ميليشيا "الدفاع الوطني" في دير الزور و"طالب البكالوريا العلمي" -في الوقت ذاته هذا العام- حساباً للحسد والغيرة والوشاية، وربما الإعلام (أنظر مظاهر من امتحانات الثانوية العامة في دير الزور)؛ ولم يخطر بباله أن إجراء شكلياً لمكافحة الملل، الذي يسببه الحضور شخصياً إلى قاعات الامتحان، بتكليف شخص آخر للقيام بهذه المهمة بدلاً عنه، سيطيح بمحاولته الجادة للحصول على شهادة الثانوية العامة، ويجهض رغباته بدخول الجامعة طالباً في كلية الاقتصاد.

رسب فراس العراقية بامتحان البكالوريا بتقرير من مفتش والعراقية ينتقم من المفتش بتقرير مضاد ومقطع جنسي مصور

علي أحمد

فإلى مدرسة (جميل علوان) في شارع الوادي في مدينة دير الزور، توجه المفتش الوزاري القادم من دمشق (يوسف شقرا) يوم امتحان اللغة العربية، للتثبت من وشاية وصلته عن عملية غش وانتحال شخصية لصالح "الطالب" فراس الجهام، ولم تفلح، بعد اكتشافه التزوير، محاولات مدير المركز والمراقبين ثني المفتش العنيد عن كتابة تقرير بالواقعة سيتسبب بالمحصلة برسوب العراقية، الذي حاول من جانبه اعتقال المفتش شقرا وسجنه، لولا تدخل ضابط مخابرات لجأ إليه المفتش.

انسداد أفق "التشبيح" أمام العراقية دفعه إلى اتباع أسلوب "الحسنى"، وإرسال وساطات للصلح ترجو المفتش الإحجام عن رفع التقرير إلى الوزارة. وحسب مصدر من ميليشيا "الدفاع الوطني"، أسقط المفتش شكواه، واستجاب لعرض العراقية بالصلح، ولبى دعوته بهذه المناسبة لوليمة/ سهرة أعدها في منزل بحي القصور في مدينة دير الزور، حيث أعدّ فخاً جنسياً للمفتش صوره فيه في وضعيات مخلة، مع فتيات ليل كن حاضرات في السهرة، واحتفظ العراقية بالمقطع المصور إلى حين صدور النتائج، وحين صدرت بحجب نتيجة "الطالب فراس ذياب الجهام"، أي رسوبه، تقدم بشكوى رسمية تتهم المفتش بالفساد والانحلال، مرفقة بالمقطع المصور، إلى وزارة تربية النظام ومدعومة بمسؤولين نافذين فيها.

استدعي المفتش (شقرا) للتحقيق من قبل الوزارة، وهو مهدد اليوم بالطرد من وظيفته، غير أن هذا لم يشفِ غليل قائد "الدفاع الوطني"، الذي يحاول تصحيح الموقف بشكوى تظلم رفعها إلى الوزارة، يطالب فيها بـ"إنصافه" من أثر "تقرير كيدي" تسبب برسوبه.

يقول (م)، وهو واحد من اصدقاء العراقية المقربين، إن مدير تربية دير الزور، خليل الحاج المعروف بخليل الچلبة، هو من يقف وراء المؤامرة التي ضيعت على "أبو علي" فراس فرصة مضمونة للنجاح بالباكالوريا، "أبو علي كان يريد شهادة جامعة، وعيجبته كانت كلية الاقتصاد.. وهو يريد يشتغل نظامي لهالبلد، ويعرف أنه عشان يستلم منصب، يستاهله هو بكل الأحوال، لازم يكون عنده شهادة جامعة". إذ يعلم أن "الدفاع الوطني" سينحل في النهاية، وبعد أن "ترجع البلد مثل ما كانت"، ولا يرضى بعد أن تنقضي "الأزمة والأحداث نهائياً انه يقولو له يعطيك العافية، ويرجع يقعد بالبيت"، يقول (م) الذي يدافع عن العراقية، ويرى فيه رجلاً شجاعاً وكريماً ومحباً للتعليم، "بوقت الحصار، منو من كل مسؤولين هالبلد سأل عن المعلمين؟ ومنو قال لهم خذوا ربطة هالخبز؟ غير أبو علي"، مذكراً بالمناسبات التي وزع فيها العراقية خبز ومواد غذائية على معلمين، و"أي استاد، أو معلمة، تصير معاه مشكلة، أو يلزمه أي شي، ما كان يروح إلا على أبو علي"؛ ورغم ذلك، حسب ما يسترسل (م) في توصيف حالة "الخذلان" التي أحس بها صديقه، "ما بيّن بعين أحد هالشي، وخاصة هالنذل خليل الچلبة، وهو أول واحد كان يكولك لأبو علي، قبل ما ينبت له ريش".

لا يُعلم بعد من هي الشخصية الأمنية الثقيلة التي تتولى حماية مدير التربية، الذي بدأ يحظى في العام الأخير بنفوذ متصاعد استغني فيه عن الخضوع والتملق لشخصيات أدنى مرتبة بوزن فراس العراقية، وربما كان أحداً ما من "الجانب الإيراني" في دير الزور، هو من أطلق يد مدير التربية، إلى حدّ يتجرأ فيه على التمرد على قائد "الدفاع الوطني".

من ضفة إلى أخرى

معابر اليوم في دير الزور وجسور الأمس

جسر الميادين- خاص عين المدينة

بشير العباد

منذ بدأ تدمير الجسور في دير الزور، راحت تتقلص حركة سكان المحافظة بين ضفتي نهر الفرات، فاقتصرت على الضرورات الاقتصادية والروابط الاجتماعية في حدها الأدنى، وظهرت السفن النهرية كحل بديل دخلت رسوماته ومصاعبه في حسابات تلك الحركة، لكن وجود ميليشيات الأسد وضرائبها، اليوم، شلت الحركة نهائياً، عدا عن القطيعة المعلنة بين القوى المسيطرة على شقي المحافظة؛ القوات الإيرانية والروسية والنظام السوري، وشماليها على الجهة المقابلة "قوات سوريا الديمقراطية".

تمتد السيطرة الشكلية للنظام على طول الضفة اليمنى لنهر الفرات، بحيث يستحوذ على المدن الرئيسية في المحافظة، الدير والميادين والبوكمال والعشارة؛ وتستحوذ تلك المدن أساساً على الجسور الكبرى، وقد بدأت تفقدها تباعاً منذ نهاية العام 2012، موعد سقوط جسر كناميات في مدينة ديرالزور. حين وصل خريف العام 2016، كانت آخر جسور السيارات تتهاوى تحت ضربات طيران التحالف الدولي الذي أسقط جسور الميادين والعشارة والبوكمال، والطيران الروسي الذي ختم سلسلة محاولات طيران النظام الفاشلة، منذ وقت مبكر، لإسقاط جسر السياسية في مدينة الدير.

كانت ذريعة التحالف الدولي في استهداف الجسور قطع إمدادات تنظيم داعش، وتقطيع أوصال دولته، على أن التنظيم اعتمد، من ثمّ، على العبارات النهرية (سفن كبيرة نسبياً تستعمل لنقل الأشخاص والسيارات) في نقل مقاتليه وسلاحه وعتاده، كما اعتمد على العبارات كوسيلة للتنقل، ثم النزوح، معظم أهالي المحافظة، فترك استهداف الطيران الروسي لها مجازر هي الأكبر في ديرالزور.

الجسور اليوم

تشيع قوات النظام عبر عناصرها أن عمليات صيانة ستجريها روسيا لجسور مهدمة، مثل جسر الميادين، تعززها بروباغندا مسؤولي النظام، مثل تصريح وزير الإسكان والأشغال العامة عن "تجهيز قوالب الجسور، وعزم النظام على إعادة الجسور كما كانت"، على أن وضع الأخيرة على ما هو عليه، منذ سيطرته على أراضي الشامية من ديرالزور، باستثناء الجسر الحربي الذي أقامته القوات الروسية عند عبورها إلى ضفة النهر اليسرى شمال مدينة الدير، وقد حل محله اليوم جسر دائم، وجسر قريب منه لإيران.

ويضاف إلى قلة فاعلية الجسور، حتى في حال عودتها للخدمة، أن قوات النظام تعتقل أغلب الواصلين إلى أراضيها، وتزج بهم في التجنيد الإجباري، سواء كانوا ممن دخلوا في ما يسمى مصالحة أو لا، الأمر الذي انعكس على كون المتجهين إلى هناك هم من كبار السن.

في أيلول من العام 2017، أنشأ الروس وميليشيات النظام جسراً عائماً على نهر الفرات، عبرت منه القوات من الشامية إلى الجزيرة، ثم استبدل، بعد سيطرتهم على عدد من قرى شمال مدينة الدير وتأمين خاصرة المطار العسكري من الجهة الشمالية، بجسر حربي لتنقل ميليشيات فاغنر الروسية والفيلق الخامس بين الضفتين، قام على إثره التحالف الدولي، المتحكم بسد الفرات، بزيادة منسوب الماء؛ ما انعكس على الجسر الذي جرفه النهر ودمره كلياً، فقامت الميليشيات الروسية بإنشاء جسر بديل بنفس المكان، منذ قرابة الأربعة أشهر.

يرتفع الجسر الجديد عن سطح ماء النهر قرابة المترين، ويربط الضفتين بين بلدتي المريعية على الضفة اليمنى ومراط على اليسرى، ويخدم تنقل السيارات العسكرية والعتاد، إلى جانب السيارات المدنية بإشراف روسي، وبأوقات محددة؛ حيث يفتح الجسر طريقه للعمل من الساعة التاسعة صباحاً، لغاية الساعة الرابعة عصراً، ثم مدد بالآونة الأخيرة للساعة السادسة، ويغلق ليلاً بشكل كامل أمام التنقلات المدنية والعسكرية التابعة لقوات الأسد أو إيران.

كما أقام الإيرانيون جسراً يربط الضفتين بين حي الحويقة بمدينة الدير وقرية الحسينية في ريفها الغربي، إلا أنه قليل الاستخدام، بسبب المعاملة السيئة والتشليح والابتزاز الممارس بحق الأهالي من قبل الميليشيات التابعة للحرس الثوري الإيراني (لواء القدس) وفرع الأمن العسكري.

العبارات

لم ينقطع سكان دير الزور، قبل الثورة، عن استخدام السفن النهرية في تنقلهم بين ضفتي النهر، إلا أنها اقتصرت على المناطق البعيدة عن الجسور، خاصة عند الانتقال إلى الجزر النهرية (الحوايج) ومنها، وبغرض الصيد والتنزه كذلك. ومع انهيار الجسور، وقطع الطريق الحيوي الواصل بين مدينتي الدير والميادين، استجاب الصناعيون المحليون لحاجة نقل المركبات والأشخاص بأعداد كبيرة، لتظهر العبارات المسيّرة بمحركات ضخمة والمصنعة غالباً من البراميل المعدنية المرصوفة، وانتشرت نقاط تنقلها بين الضفتين (المعبار) باضطراد، حتى صار يفصل بين المعبار والآخر مسافة 10–15 كم في بداية العام 2017.

تسمح اليوم الميليشيات على ضفة النظام بعبور عدد محدد من الأهالي، وفي أربعة معابر تنتشر فيها حواجزهم، بينما تخلو منها ضفة "قوات سوريا الديمقراطية". فدون أي حاجز على ضفة النهر في قرية حمار العلي (قسد) يرتب بعض السكان أمور عبورهم إلى بلدة الشميطية في ريف ديرالزور الغربي، الواقعة تحت سيطرة قوات الأسد، والذي يستقبلهم بحاجز أول للفرقة الرابعة، يبتزّ عناصره مبالغ مالية من العابرين، ويعتقلونهم في بعض الأحيان.

تكلف تلك الرحلة مبلغ 500 ليرة سورية عن كل راكب يستقل العبارة النهرية إلى الضفة الأخرى، وتعمل العبارات من الساعة السادسة صباحاً وحتى الخامسة مساء، و يجازف البعض بالعبور أحياناً من قرية الجنينة لتهريب مشتقات نفطية.

تنتشر حواجز الفرقة الرابعة كذلك على معبر نهري يصل بين مدينة الميادين (نظام) وقرية الحوايج (قسد)، وآخر قريب منه بين بلدة الشحيل (قسد) و قرية بقرص (نظام)، ويسلك هذه المعابر كبار السن عادةً، بعضهم يعود إلى مناطق قسد بعد تفقدّ منزله، ويصل عددهم إلى 20–25 شخصاً في اليوم، بتكلفة 3000 ليرة سورية يتقاسمها مناصفةً صاحب العبارة النهرية والمسؤول في قوات قسد في المنطقة، الذي يمنحهم (الإذن) في العبور. ويضاف إلى تلك المعابر شرقاً، معبر أخير يصل بين قرية أبو حردوب (قسد) وبلدة صبيخان (نظام)، لكنه غير آمن بسبب استهدافه من ميليشيات الأسد، لذلك لا يستخدم إلا نادراً.

و يستخدم في العبور بين مناطق السيطرة، إضافة إلى المعابر، نفق في منطقة الجزيرة يصل بين قريتي الجنينة والحسينية، حيث تنتشر قوات روسية وإيرانية مساندة للنظام، ويتم من خلاله تهريب بعض الأشخاص الراجلين أو على دراجات نارية في أوقات متباعدة.

أهم جسور دير الزور على نهر الفرات:

الجسر المعلق: بناه الفرنسيون في عشرينات القرن الماضي ليصل بين مدينة دير الزور على الضفة اليمنى لنهر الفرات وضفته اليسرى قرب قرية الحسينية.

الجسر اليوغسلافي: ويعرف ب"جسر السياسية" لوقوع مبنى الأمني السياسي قرب مدخله الجنوبي، بنته شركة يوغسلافية في ستينات القرن الماضي، ويصل مدينة دير الزور في الضفة اليمنى لنهر الفرات بضفته اليسرى قرب قرية حطلة.

جسر الميادين: بني في سبعينات القرن الماضي، ويصل مدينة الميادين في الضفة اليمنى لنهر الفرات بضفته اليسرى بين قرية الحوايج وبلدة ذيبان.

جسر العشارة: بني في سبعينات القرن الماضي على شكل جسر حربي، ليصل مدينة العشارة في الضفة اليمنى لنهر الفرات بضفته اليسرى في بلدة درنج، وأعيد تأهيله في العقد الماضي باستعمال الخرسانة المسلحة.

جسر البوكمال: بني في ثمانينات القرن الماضي، ويصل مدينة البوكمال في الضفة اليمنى لنهر الفرات بضفته اليسرى قرب قرية الباغوز.

الجسر العتيق: ويعرف ب"الأعيور"، يقع على الفرع الصغير لنهر الفرات في مدينة دير الزور، بني أول مرة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وأعيد تأهيله منذ ذلك التاريخ عدة مرات.

جسر الكنامات: يقع على الفرع الصغير لنهر الفرات في مدينة دير الزور، وبني في ستينات القرن الماضي.

جسر الجورة: يقع على الفرع الصغير لنهر الفرات في مدينة دير الزور، وبني في سبعينات القرن الماضي.

معبر الشحيل - خاص

في مسكنة
حين كشفت العشيرة هشاشة الهندسة البعثية

مسكنة بعد سيطرة قوات النظام عليها- متداول

عبد الله حسن

يمكن أن يقال إن ما عايشته مسكنة أعاد صهر هويّة أبنائها المكانية وانتماءَهم لها في بوتقة الهوية العشائرية، وصلة (ذوي القربى)، إذ لحق الجميع بأقربائهم، إما في مناطق سيطرة النظام، أو في تلك الخاضعة لسيطرة "قوات سوريا الديموقراطية"؛ بمعنى أن البلدة أعيد هيكلتها إلى مايشبه فترة ما قبل المغمورين وبناء السد، حيث الجميع مغمورون، ومغدورون أيضاً على خاصرة نهر الفرات.

نبذة تاريخية

لم تكن مملكة (إيمار) الواقعة على خاصرة نهر الفرات قد اكتُشفت بعد حين بدأت عمليات بناء (سد الطبقة) الشهير عام 1968، لم يعبأ حكام سوريا آنذاك بمدينة يعود تاريخها حتى العصر البرونزي في منتصف الألفيّة الثالثة قبل الميلاد، والذي بدأت تتشكّل معه البنى الثقافية والسياسية المميِّزة لحضارات الشرق القديم.

لربما يتذرّع البعض بأن للمصلحة العامة -بناء سد الفرات- أفضلية دائمة على البحث والحفريات المعرفية، وبأن المستقبل لا بدّ وأن يُفضي إلى إقصاء التاريخ أو تنحيته جانباً؛ "سنجعل من ذاكرة شعبنا صفحة بيضاء لكي نكتب عليها أجمل العبارات وأنبل الأفكار" يقول ماو تسي تونغ، الديكتاتور الكبير، وجاء في رواية (1984) لجورج أورويل: "سنعتصركم ونفرغكم مما في أنفسكم، ونملؤكم بما في أنفسنا".

في العام 1972 اكتُشفت إيمار (مسكنة حديثاً) -باربالیسوس في العصر البيزنطي، بالس خلال العصر الإسلامي- في المنتصف بين حلب والرقة، تفصلها عن كلتيهما مسافة تقدّر بنحو 90 كيلومتراً؛ اتُصفت التنقيبات الأثرية الفرنسية فيها، والتي استمرت حتى خريف العام 1976، بأنها "إنقاذية سريعة"، إذ أدى ارتفاع منسوب المياه لاحقاً في "بحيرة الأسد" إلى إيقافها، بعد أن كشفت عن معابد كُرّست لبعل وعشتار، وحوالي 1500 رقيم باللغة السومرية، الأكادية، الحورية، والحيثية، وبموضوعات تتنوع بين الإدارة، الدين، المعجميّة، السياسة، الأدب، التعويذات، الرسائل، والوصايا.

حافظ وبشار الأسد

كان سد الفرات/الطبقة بالنسبة لإيمار بداية حقبة جديدة من تاريخها، ويعتبره حزب البعث "أعظم"منجزات "الحركة التصحيحية" التي قادها حافظ الأسد عام 1970... غُمرت المنطقة بالمياه التي شكّلت "بحيرةَ الأسد"، ما بات يعرف لاحقاً بـ (الغمر)، واضطُر قاطنوها إلى مغادرة منازلهم قاصدين اتجاهات شتى (مسكنة الحديثة، ريف حلب، الرقة، والحسكة) وأُطلق عليهم اسم (المغمورون)، وظلّ ذاك النعت بمثابة أحد أشكال التمييز الطبقي الذي كان يمارس بحقّهم في المناطق التي ارتحلوا إليها وسط وعود وتعهّدات من الحكومة بتعويضهم؛ أهداهم الأديب السوري (عبد السلام العجيلي) روايته الصادرة عام 1979 والتي تحمل الاسم ذاته (المغمورون) قائلاً: "إلى الذين على رؤوسهم المغمورة بمياه سد الفرات بُنيت أمجاد وازدهرت حظوظ، إلى المغمورين، أهدي روايتي هذه".

على بعد نحو 30 كيلومتراً غرب إيمار المغمورة بالمياه كانت بلدة مسكنة، تقطنها عائلات من عشائر شتى، معظمها من (عشيرة خفاجة)، تمتلك غالبيّة أراضيها... أصبحت فيما بعد ضمن "أملاك الدولة" التي بنت فيها معملاً للسكر، ومجمعاً للأبقار، ومحطتي ضخ للمياه؛ ارتحل إليها المغمورون، ثم أقيمت قربها "منشأة الأسد" لتأمين المياه لفلاحي المنطقة، لم يطل بها الأمر حتى فشلت، إذ أدى سوء تخطيطها وإدارتها إلى تملّح في التربة.

كان شبّانها يرتادون معاهد استصلاح الأراضي، قبل أن يتّجهوا فيما بعد لدراسة ظواهر التصحّر؛ كما بنيت فيها مجموعات من المنازل الإسمنتية الصغيرة بمساحة (8 × 8) للمنزل الواحد، سمّيت بـ (مزارع الدولة) كـ تعويض لمن خسروا منازلهم وأملاكهم في قاع البحيرة آنذاك، مع العلم أنهم أُلزموا بدفع رسوم شهرية لقاء العيش فيها.

كانت عملية اقتطاع الأراضي تلك من الملّاك لصالح نظام الأسد الأب، وتوزيع بعضها، وعملية توطين المغمورين، وإقامة المزارع فيها... إحدى أشكال الهندسة المجتمعية التي رسمت ملامح مسكنة فيما بعد، والتي كان لها بليغ الأثر على حاضرها مع أول اختبار حقيقي للتركيبة السكانية فيها (ثورة آذار 2011)، إذ أثارت من الضغائن ما أثارته في مناطق أخرى هاجر إليها المغمورون آنذاك في شمال شرق سوريا، ولطالما سمعت عبارة: "المغمورون استولوا على أرضنا"، لم يكن أحد يجرؤ على القول إن الدولة استولت على البقرة وقسّمت ليتراً من الحليب بالسنتيمتر المكعب!.

"من نكون نحن في هذه الماكينة الكبيرة التي يسمونها الدولة؟ نحن حدائد صغيرة، براغي أو أسلاك أو مسامير دقيقة وغليظة... قطع من المعدن لا بدّ للماكينة منها، وفي نفس الوقت لا قيمة لها ولا نفع إلا في مكانها من الآلة" ينقل العجيلي في روايته عن فلاحين صدَر القرار بتهجيرهم.

الثورة السورية

في عهد الأسد الابن لم يختلف الأمر كثيراً عما كان عليه في عهد والده؛ ما يمكن ذِكره هو أن إدارته في بدايتها قامت بتوزيع أراضٍ كانت من ضمن (أملاك الدولة) بمعدّل 3 هكتارات لكل عائلة اشتغل أحد أفرادها مدة 9 أشهر على الأقل في الزراعة أو قطف القطن أو رش المبيدات لدى المنشأة آنذاك.

حين انطلقت الثورة كان تعداد سكان مسكنة حوالي 40 ألف نسمة من العمال والفلاحين، قسم لابأس به منهم يعملون في السعودية؛ خرجت أولى مظاهراتها ضد نظام الحكم في تموز 2011، واستمرت مع حملات المداهمة والاعتقالات التي كانت تشنها أجهزة الأمن فيها، حتى خرجت المدينة عن سيطرته في آب 2012، وهو العام الذي أطلق فيه النظام سراح القيادي الإسلامي هاشم الشيخ (أبو جابر).

حين أفرج النظام عن هاشم الشيخ، وهو أحد أبناء خفاجة، قام إلى جانب عدد من أقربائه وآخرين من (عشيرة الجريّات) بأول عملية مسلّحة في مسكنة (10 آب 2012)، حيث هاجموا مركز أمن الطرق في البلدة، بعد الاتفاق مع أحد عناصر الشرطة فيه لإدخالهم وتسليمهم ما به من أسلحة وسيارات... لم يُقتل أحد من المهاجمين، بينما قتل 3 عناصر من الشرطة، بينهم رئيس مفرزة الأمن العسكري المساعد (أبو غدير)، ولم يتوقع أحد على الإطلاق أن يفرّ عناصر الأمن جميعهم في اليوم التالي ليُعلن عن (تحرير مسكنة).

لاشك أن النظام أراد أن تأخذ الأمور في المنطقة هذا المجرى، ويتركها لصراع الهويات الصغيرة (العشائرية، الدينية، المذهبية، العرقية... إلخ)؛ في تصريح لأورينت نت يقول (محمد أبو العز) أحد المشاركين في العملية، إن الكثير من شبان مسكنة كان قد تم تصنيفهم أمنياً لدى النظام كـ منتمين لحركات وهابية وسلفية، حسبما عُثر عليه في قرص مدمج داخل مفرزة الأمن بعد فرار عناصرها، كما عبّر أبو العز عن أن أحداً لم يتوقع أبداً أن تكون النتيجة (تحريراً) بعملية صغيرة كهذه، في بلدة استراتيجية كـ مسكنة شكّلت فيما بعد نقطة انطلاق لمهاجمة مدينتي الطبقة، ومن ثم الرقة، من الجهة الشمالية الغربية.

حركة أحرار الشام

أسس هاشم الشيخ كتيبة مصعب بن عمير، بينما تولى أبو العز، بادئ الأمر، إدارة المجلس المحلي في مسكنة وقطاعاتها الخدمية، قبل أن يغادر البلدة متجهاً إلى حلب لتأسيس كتيبة فيها، بعد ضغوطات وخلافات مع الشيخ؛ انضم الأخير بعناصره فيما بعد إلى (حركة فجر) الإسلامية، التي شكّلت بدورها نواة (حركة أحرار الشام)، وتولّت كتيبته بقطاعاتها المختلفة إدارة البلدة برعاية الحركة وبمباركتها، عقب سيطرة المعارضة على مطار الجراح.

أثارت سياسات أبو جابر الكثير من الخلافات؛ لم تكن جلسة تتطرق للحديث عن أوضاع القطاع الخدمي في مسكنة تخلو من حديث عن أن (عشيرة خفاجة) تحتكر إدارة الأمور الخدمية من الأفران، الكهرباء، الماء... إلخ دون غيرهم، مادفع أبناء العشائر الأخرى للانضمام إلى كتائب مختلفة كانت في البلدة (جيش الإسلام، لواء التوحيد، وغيرهم)، وانضم أبناء (الجريات) ممن شاركوا في العملية المسلحة الأولى آنذاك لـ (جبهة النصرة)، ثم تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) من منطق الندّية للحركة، والعناد والمراهقة الهويّاتية ذاتها التي اكتسحت مناطق شتى في سوريا كان قلب الصراع فيها قائماً على انتماءات صغيرة، لكنها طبقية بالدرجة الأولى.

تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)

نتيجة لذاك التوتر والاحتدام بين الحركة وتنظيم الدولة، قُتل (حسين الحمدون/ أبو ريان) طبيب الأطفال من خفاجة مسكنة، وعضو الجناح السياسي في الحركة، كان يدير حينها معبر تل أبيض الحدودي مع تركيا في ريف الرقة، وأعقبَ مقتله سيطرة التنظيم على البلدة بالكامل في 12 كانون الأول 2013 ، لتغادرها أحرار الشام، ويتسلّم زمام الأمور فيها "أبو محجن" و"أبو العباس" (من الجريات، شاركوا في العملية الأولى مع أبو جابر) وعناصر من خارج سوريا

بعد أيام قليلة من طرد تنظيم الدولة حركةَ أحرار الشام، شن التنظيم هجمات متزامنة على مدن وبلدات الخط الواصل بينها وبين الرقة (دبسي عفنان، الطبقة، المنصورة) التي كانت خاضعة للحركة، لتمتد بعد ذلك رقعة الاشتباكات ويسيطر التنظيم على الرقة مطلع كانون الثاني 2014.

أبو هاشم الشيخ

تحولت مسكنة بعد ذلك لمرتع استخدمه عناصر التنظيم للترويح عن النفس.. عشرات المنازل التي باتت فارغة بعد مغادرة الحركة وعناصرها من أبناء المنطقة، مثلما هو الحال بالنسبة لنظيرتها في مدينة الطبقة، قطنتها عائلات العناصر غير السوريين في التنظيم.

ونتيجة لسوء الأوضاع الاقتصادية فيها، هاجر الكثير من سكان مسكنة إلى تركيا وأوروبا، واستمروا على هذه الحال حتى بداية تقهقر تنظيم الدولة عسكرياً، واقتراب قوات النظام السوري من دير حافر في ريف حلب؛ حين هاجر قسم كبير منهم إلى منبج، ومن ثم الطبقة لدى سيطرة "قوات سوريا الديموقراطية" عليها مطلع أيار 2017.

بعد شهرين، حزيران 2017، سيطرت قوات النظام السوري وحزب الله اللبناني على البلدة الخالية من السكان تقريباً، الشبان على وجه الخصوص، وسارعت بتشغيل محطات ضخ المياه فيها المسؤولة عن تغذية مدينة حلب، لتبدأ بعدها بعض العائلات النازحة في منبج، وريف الرقة خصوصاً، تلك التي قوامها كبار السن والنساء والأطفال بالعودة، إضافة إلى بعض العاملين في قطاعات الخدمات والتجارة ممن لم يغادروا إلى الخارج، وأمِنوا العودة إلى منازلهم، ويعيش غالبية النازحين سورياً في الطبقة ومنبج ودبسي عفنان في ريف الرقة.

ريف الرقة - خاص

تمكن أحمد في مخيم عين عيسى بريف الرقة الشمالي أخيراً من العودة لجزء من حياته شبه الطبيعية، وممارسة طفولته، بعد خضوعه لدورات محو الأمية ودورات دعم نفسي نفذتها مؤسسات مدنية بدعم من برنامج (إنجاز)، بعيداً عن الصعوبات والصراع الذي واجهه ملف التعليم في المحافظة.

تجارب متميزة في التعليم على هامش صراع المناهج شمال وجنوب الطريق الدولي في الرقة

عدنان الحسين

أحمد (14 عاماً) أحد الأطفال الذين كانوا ضحية سيطرة تنظيم داعش على مدينة الرقة على مدى أكثر من ثلاث سنين، انضم خلالها لمعسكرات ما يعرف بأشبال الخلافة، وتشرب أفكار التنظيم. ومع رحيل التنظيم عن مدينة الرقة، ونزوحه مع عائلته إلى مخيم عين عيسى، بدت عليه علامات الضياع والعزلة، حيث بقي فترة في المخيم لا يتكلم مع أحد، ولا يشارك الأطفال بأي شيء؛ حتى دخوله دورة الدعم النفسي، ليبدأ بعدها حياته كطفل بعيداً عن السلاح، ويحقق المرتبة الأولى على أقرانه.

دورة الدعم النفسي التي دخل إليها أحمد تندرج ضمن برنامج (إنجاز)، الذي تمكن منذ طرد داعش من الرقة من دعم وافتتاح نحو 410 مدارس، 33 مدرسة منها ضمن مدينة الرقة، والبقية في أريافها، بتعداد طلاب يصل لأكثر من 150 ألف طالب بمختلف المراحل الدراسية. ويعتمد برنامج (إنجاز) على التشبيك مع مؤسسات محلية، (وفاق، آفاق جديدة، صناع المستقبل، أمل أفضل للطبقة، معاً لأجل الجرنية، إنماء الفرات، وإنماء الكرامة)، متوزعة في أرياف المدينة من أجل تنظيم العملية التعليمية، وكذلك عملية الدعم النفسي والأنشطة الاجتماعية للأطفال.

أحد الناشطين في الدعم النفسي المدرس ناجي، أو المدرب والمبدع كما يصفه الأطفال في مخيم عين عيسى، قدم نازحاً من ديرالزور، وتحديداً من مدينة البوكمال شرقاً، فعايش صعوبة النزوح، وعمل كبواب وحارس رغم التحصيل الجامعي الذي يحمله في الفنون الجميلة؛ لكنه، بعد انتشار رسوماته وإعجاب المؤسسات التعليمية بها، انتقل للعمل كميسّر دعم نفسي للأطفال عبر الرسومات. ويبدأ ناجي ذو 30 عاماً يومه بالجلوس مع الأطفال وتعليمهم الرسم، وكذلك رسم بعض اللوحات الكرتونية وتجسيد حكاياها، في محاولة لإخراج الأطفال من جو الحرب.

التجربتان المميزتان للطفل أحمد والرسام ناجي لاتعبر عن عملية التعليم في الرقة، فهناك العديد من المصاعب التي تواجهها، ولعل أبرزها غياب الخبرة في التعامل مع الأطفال الخارجين من أجواء الحرب، أو حتى في المجال التعليمي التقليدي لدى المعلمين، ومعظمهم من حملة الشهادة الثانوية. كذلك الدور الذي يلعبه المعلمون المدعومون من مكتب منظمة الأمم المتحدة للطفولة (يونيسف) في دمشق، والذين يعملون على الترويج لنظام الأسد، دون الاكتفاء بالتعليم والتزام وضع التفضيلات السياسية جانباً.

وعلى الرغم من تسارع وتيرة إحياء عملية التعليم، والمصاعب التقنية أو السياسية التي تواجهها، فإن فرض "الإدارة الذاتية" لمناهجها تبدو الاستراتيجية الأكثر ضغطاً على المعلمين والأطفال على حد سواء، وكذلك بالنسبة للكوادر الإدارية المعنية بشؤون سكان الرقة. وتفرض الإدارة مناهجها على مواقع محددة من ريف الرقة، حيث يعتبر الطريق الدولي (حلب- الحسكة) هو خط الفصل بين المناهج التي فرضتها "الإدارة الذاتية" شمالاً، وبين المنهاج القديم جنوباً.

ضم "الإدارة الذاتية" منطقة شمال الطريق الدولي -حيث يوجد مخيم عين عيسى- ل"مقاطعة كوباني"، وبالتالي فرض المناهج الخاصة بالإدارة على الطلاب، خلق (صراع المناهج) بين "الإدارة الذاتية" و"مجلس الرقة المدني" الذي حاول التمسك بمنهاج ما قبل الثورة باستثناء مادة القومية، قبل استقالة أعضائه العرب الفاعلين منذ نحو ستة أشهر، وبعد أن نجح الأخيرون في حسم ملف التعليم في مدينة الرقة وجنوب الطريق الدولي لصالح المنهاج القديم، وذلك عبر طلب رسمي شمل العديد من الخلافات، قدمه المجلس إلى التحالف الدولي الذي وافقهم على مطالبهم.

طلب "المجلس المدني" جاء بعد محاولات "الإدارة الذاتية" تعميم مناهجها على مدينة الرقة وريفها الجنوبي والغربي، لكنها رضخت في نهاية الأمر لقرار التحالف الدولي باستقلالية التعليم، والعمل بالقانون السوري، وعدم قبول انضمام الرقة لما يسمى (روج افا)، حسب مطالب التكتل العربي في مجلس الرقة المدني حينها، الأمر الذي عرض أفراد المجلس حينها للتهديد، ما أجبرهم على الاستقالة من المجلس، وأتاح بالتالي الفرصة لرفد المجلس بأشخاص ذوي ولاء كبير لحزب الاتحاد الديمقراطي pyd.

لم يقتصر الأمر على تهديد أعضاء المجلس، بل تجاوزه إلى التمييز تجاه المعلمين، فأولئك الذين يتبعون لـ "الإدارة الذاتية" لا يخضعون للتجنيد الإجباري، تحت قانون يعتبرهم أنجزوا الخدمة خلال عملهم في التعليم، بينما يجبر المعلمون التابعون ل"مجلس الرقة المدني" على استصدار تأجيلات وإجبارهم لاحقاً على الالتحاق بالتجنيد. ويضاف إلى ذلك مصاعب أخرى داخل المدينة، أبرزها منع "قوات سوريا الديمقراطية" ردم الأنفاق الموجودة داخل المدارس، رغم كثرتها وتأثيرها على سير عملية التعليم، وذلك تحت ذريعة أن القوات في حالة حرب وقد تلجأ إلى استخدامها.

(إذا مات عصفور فقد العالم لحناً)

عن أحمد عزيزة الذي نال الشهادتين في أورم الكبرى

مصطفى أبو شمس

"إذا مات عصفور فقد العالم لحناً" كانت آخر العبارات التي صورها الشهيد الإعلامي أحمد عزيزة، وهو يوثق جدران مدينته حلب، قبل التهجير القسري نهاية عام 2016. لم يكن يعرف أنه يوثّق موته، حين تفقد الثورة لحناً آخر من ألحانها، ليضاف إلى 426 إعلامياً قتلوا خلال سنوات الثورة وثقتهم رابطة الصحفيين السوريين حتى شباط 2018.

لم يمنعه صغر السن من الالتحاق بركب الثورة السورية منذ بدايتها، فأحمد محمود عزيزة من مواليد حلب 1998، ينتمي لعائلة شاركت في الحراك الثوري منذ بدايته، والده الإعلامي "أبو العز الحلبي" وأخوه حميدي الحلبي "أصغر إعلاميي الثورة".

بعمر 16 سنة ترك أحمد مقاعد الدراسة نتيجة القصف والمعارك الدائرة والتحق بدورات التمريض والإسعافات الأولية ليبدأ العمل في المشافي الميدانية (مشفى البيان في حي الشعار ونقطة طبية في حلب القديمة)، وكمتطوع في جمعية القلوب الرحيمة وممرض ضمن كتائب الصفوة إضافة إلى المكتب الطبي في مجلس المدينة، يقول والده لـ عين المدينة.

التحق الشاب الشهيد بمهنة الإعلام والتوثيق (على خطى والده) كمراسل ميداني لشبكة حلب نيوز والشبكة السورية لحقوق الإنسان (مجاناً) وبعض المواقع والصحف العربية، ليساهم في توثيق جرائم الأسد وتغطية ما يحصل في مدينته وإيصال صوته مع الصور التي التقطها إلى العالم، يقول مصطفى العبدالله مدير مكتب حلب اليوم "لم يعرف في حياته غير الثورة، عاش طفولته في حلب حتى خرج منها، غالباً ما كنا نشاهده على دراجة نارية يتنقل بين الأحياء بابتسامة لا تفارق وجهه لتغطية المعارك والقصف لجميع الوكالات الإعلامية"، ليخلص إلى القول "كان أحمد مخلصاً لا يعرف من حياته سوى الثورة وسوريا".

تعرض لإصابات خطيرة خلال عمله الإعلامي، ولكنها لم تضعفه بل كان مثال الشاب الطموح المخلص، وكان له "شرف البقاء في حلب أثناء الحصار" على حد قول والده، إلى أن خرج مع المهجرين إلى مدينة الأتارب ثم إلى قرية أورم الكبرى (15 كم جنوب غرب مدينة حلب)، إذ تابع عمله الإعلامي في شبكة حلب نيوز وشبكة عيون سوريا، وقدّم المئات من صوره إلى الصحف والمواقع السورية، وأسس مع زملائه الإعلاميين "اتحاد إعلاميي حلب وريفها".

حصل أحمد منذ شهر تقريباً على شهادة التعليم الأساسي بعد غياب 6 سنوات عن مقاعد الدراسة، "كانت فرحة كبيرة لنا ولأحمد بعد الجهد والتعب الكبيرين، في التوفيق بين دراسته وعمله" وبدأ التحضير لدراسة الثانوية "اتفقنا أن يتقدم لامتحان الثانوية في العام المقبل، ليدرس الفرع الأدبي، كان يطمح أن يدرس في كلية الإعلام" يخبرنا والده الذي ينعي ابنه الشهيد، خلال تغطيته للقصف الجوي الروسي على قرية أورم الكبرى يوم أمس الجمعة "أحمد خرج لتغطية القصف على البلدة بعد الغارة الروسية الأولى التي استهدفت القرية في تمام الساعة السابعة مساءً، ليعاود الطيران ويقصف مكان وجوده، مما أدى إلى استشهاده إلى جانب 37 مدنياً آخرين".

نال أحمد "الشهادتين" كما عبر أصدقاؤه في رثائهم له، ليجمعوا على دماثة خلقه وحضوره المرح وخجله الذي لا يفارقه كما ابتسامته، وكان آخر ما كتبه الإعلامي الشهيد على صفحته الشخصية في الفيس بوك عن الطفل يوسف، "كثيرة هي وجوه الأطفال الذين حمل بعضهم كفنه مبكراً، هؤلاء في عمر الزهور، فلم تفرق آلة الحرب بينهم وبين الكبار، ولم تستثنهم فوهات البنادق".

حكايا.. ثلاثة أيتام وثلاث أمهات من ادلب

سونيا العلي

بعدسة الكاتبة

الظروف القاسية التي مر بها الشاب أحمد، والنشوء بين براثن الفقر والحاجة، جعلته عدوانياً ومتعطشاً للثأر، فاختار أن يسلك طريق المشاركة في الحرب من خلال الانتساب إلى إحدى الفصائل المقاتلة بهدف الثأر لوالده الذي قضى في سجون النظام من جهة، وكسب المال اللازم للإنفاق على أمه وإخوته الذين يعيشون بدورهم ظروفاً اقتصادية صعبة من جهة أخرى.

خلفت الحرب التي تدور رحاها في سوريا الدمار والكوارث وآلاف الأيتام الذين يعيش معظمهم ظروفاً صعبة، حيث يتركهم المجتمع وحيدين يواجهون معاناتهم الكبيرة، على أعمارهم وتجربتهم الغضة في الحياة، فينتظرون مستقبلاً مجهولاً ومعاناة لا تنتهي من حرب لها أكثر من سبعة أعوام، لم يعايش أطفال سوريا أهوالها فحسب، بل غاب عنهم شعورهم بالطفولة، وحرموا من معظم حقوقهم، بسبب المعاملة السيئة وسوء التغذية وغياب الرعاية الصحية.

أحمد (17عاماً) من معرة النعمان بريف إدلب الجنوبي، اعتقل والده عام 2012 أثناء سفره إلى مدينة حلب لجلب البضائع اللازمة لعمله كبائع متجول، وبعد سنة عرفت عائلته من شخص خرج من السجن ذاته، بأن الوالد قضى تحت التعذيب في سجون النظام. "بما أنني الابن الأكبر في الأسرة، اضطررت لترك المدرسة، لأساعد أمي في الإنفاق"، يشرح أحمد عن الظروف التي دفعت به إلى خوض تجربة كبير العائلة، ويتابع "فكنت أذهب معها إلى العمل في الزراعة، من حصاد وقطاف وغيرها، لتأمين قوت يمكننا من البقاء على قيد الحياة."

يؤكد أحمد بأنه كان يكبر ويكبر معه حب الثأر لوالده، وعندما بلغ الخمس عشرة انتسب لإحدى الفصائل، وتلقى تدريباً على حمل السلاح. أما أمه، التي فقدت السند والمعيل قبل أن تبلغ الخامسة والعشرين، فتتحدث عن معاناتها قائلة: "أصبحت فجأة أرملة ومسؤولة عن أربعة أبناء، دون أي دخل أنفق منه عليهم، في ظل أوضاع صعبة يسودها انعدام الأمن والاستقرار".

يضاف إلى ذلك عادات وتقاليد بالية تتحكم بالأرملة وتراقب تحركاتها، كما تقول أم أحمد، "لكنني لم أستسلم لليأس، واتجهت نحو العمل الزراعي بأجر يومي بالكاد يكفينا لتأمين لقمة العيش مع بعض المساعدات الإغاثية التي تصلنا شهرياً". وتضيف: "كلما كبر ابني يزداد خوفي عليه أكثر فأكثر، بسبب تهوره وإصراره على التطوع في صفوف الجيش الحر" وعلى رغم حاجة العائلة الماسة لما يحصل عليه الشاب من مال جراء عمله، إلا أن الأم تطلب منه باستمرار أن يتركه خوفاً عليه من التعرض لمكروه.

أما هيثم (18عاماً) من معرة النعمان فكان أكثر حظاً، حين تمكن من متابعة دراسته ونيل شهادة التعليم الثانوي، ويعدّ نفسه اليوم لدخول جامعة إدلب، وعن ذلك يقول لعين المدينة: "لو بقيت أعمل طوال حياتي من أجل أمي، فلن أكون قادراً على تعويض لحظة واحدة من لحظات التعب والشقاء التي عاشتها من أجل وصولي إلى هذه المرحلة التعليمية، فقد أفنت أيامها لأجلنا، وحتى لا نمدّ يد العوز والحاجة لأحد مهما كانت قرابته"

أم هيثم (33عاماً) تتحدث عن رحلة الترمل والشقاء بقولها: "قضى زوجي عام 2013 تاركاً لي طفلين، وهما هيثم 13 عاماً، وهدى 10 سنوات، فحملت لقب أرملة وحملت معه أعباء المعيشة، وكان يصعب علي أن أنتظر المساعدة والشفقة ممن حولي، فقررت الاستقلال مادياً ومعنوياً من خلال تعلم مهنة الخياطة من جارتي، التي أبدت استعداداً لتعليمي بهدف العمل وتوفير متطلبات طفلي، ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأت العمل، واكتسبت ثقة من حولي بإتقان المهنة والبراعة فيها".

تدرك أم هيثم فرادة تجربتها في محيط محافظ، وعن ذلك تقول: "نظراً لصغر سني، تحملت الكثير من المشاكل والإهانات من أهلي وأقاربي بسبب رفضي الزواج، لكنني صمدت وأصررت على تربية طفليّ، وقهرت الواقع الصعب والظروف في سبيل ذلك".

أما عبد القادر (15عاماً) من مدينة إدلب، بوجهه المتسخ الذي يكاد يخفي ملامحه، فيسابق ساعات الفجر الأولى للوصول إلى أكوام القمامة صباحاً، ليتحول إلى غسيل السيارات مساء، للإنفاق على إخوته، وذلك بعد وفاة والده وزواج أمه من رجل آخر، وعن ذلك يقول: "بعد زواج أمي بدأ زوجها يسيء معاملتي، ومعاملة أخي وليد وأختي عائشة، لذلك هربنا من منزله واتجهنا للسكن مع جدتي المسنة، ومنذ ذلك اليوم تركت المدرسة، وتوجهت نحو العمل في مكب النفايات للبحث عن كل ما يمكن بيعه من فوارغ بلاستيكية ومعدنية، ليشكل عائدها مصدر رزق لي ولأخوتي".

يؤكد عبد القادر بأن العمل شاق، ويعاني بسببه من ألم في ظهره، ورغم الخطورة وانتشار الأوبئة في المكبات إلا أنها أصبحت مضمار سباق بينه وبين أقرانه لكسب قوت يومهم.

لم يكن من السهل على أمه فاطمة أمه (31عاماً) أن تختار الزواج الثاني، بعد تعرضها لظروف قاسية، أهونها الفقر وقلة الدخل وأصعبها تحكم البعض بحياتها، لذلك لم يعد لديها خيار آخر، على حد وصفها. تقول فاطمة: "استشهد زوجي في كانون الثاني 2012 إثر تعرضه لإصابة حربية، اسودت الدنيا في عيني، خاصة أنه لم يترك لي ولأبنائي مصدر رزق، أو منزل نعيش فيه على الأقل، الأمر الذي جعلني مشردة بين بيت أهلي وأهل زوجي على مدى سنتين، ورغم مضايقة الطرفين لي ولأولادي الثلاثة آثرت التحمل والصبر، كما حاولت مراراً البحث عن عمل دون جدوى، باعتباري لا أحمل شهادة تؤهلني لدخول سوق العمل، إضافة إلى رفض أهلي لخروجي المتكرر من المنزل وأنا ما زلت شابة؛ فاضطررت للموافقة على الزواج من أول عريس، رغم أنه يكبرني بعشرين عاماً، وقبلت أن أكون الزوجة الثانية لأضع حداً لمعاناتنا وتشردنا، بعد أن قبل أن يتكفل بالأولاد"

ماذا حصل في كفريا والفوعة بعد إفراغها؟

الصورة لشبكة شام الإخبارية

شمس الدين مطعون

استولت الفصائل المقاتلة بريف إدلب على كفريا والفوعة، وجرى تقسيمهما لقطاعات؛ فاستحوذت هيئة تحرير الشام على الحصة الأكبر في بلدة الفوعة، وتقاسم كل من فيلق الشام، أحرار الشام، وجيش الشام باقي المنطقة، بينما انتشر فصيل التركستان في قرية كفريا الصغيرة.

لا تعتبر كفريا والفوعة ذات موقع استراتيجي، ولم تستخدم كمقرات أو مستودعات أسلحة، وبدأت العوائل التي تنتمي لهذه الفصائل بالتوجه إليها للسكن، بعد 18 تموز الفائت، موعد عملية تهجير سكان كفريا والفوعة ، باتفاق روسي- تركي- إيراني على متن 121 حافلة أقلت 7 آلاف نسمة تقريباً إلى معبر العيس، حيث جرى تبديلهم مع النظام ب 1500 معتقل.

جولة صغيرة في الفوعة تظهر عدداً من المحلات، كبائع الخضار والجزار والسمان وبائع المحروقات، وعدداً لا بأس به من الأهالي من أماكن مختلفة، وجلّ من استقر هناك هم من أبناء المناطق المهجرة كداريا والزبداني والغوطة الشرقية.

أبو براء من داريا، انتقل إلى الفوعة منذ وقت قريب، قال ل عين المدينة "أثقلتني هموم الحياة والتكاليف وأجرة البيت، لذلك قررت أخذ بيت بالفوعة". يتبع أبو براء لفصيل فيلق الشام، ويعتمد على المكافأة الشهرية التي يمنحها الفيلق "لا تكفي لشيء... أنوي العودة لمهنتي القديمة (المعجنات) وبموافقة صغيرة من المسؤولين بالفيلق يمكنني الحصول على محل في الفوعة لإعادة فتحه" أوضح أبو براء.

مهاب مهجر، أيضاً من ريف دمشق، ويرهقه إيجار المنزل، ولكنه لا ينوي الانتقال إلى الفوعة، فهو يرى أن هذه الأملاك يجب أن تترك على ماهي عليه لحين انتهاء الحرب: "صحيح أننا هجرنا من أرضنا، واستولى النظام على أملاكنا واستباحها، ولكن لا يمكننا أن نعامله بالمثل. أخلاقنا وديننا لا يسمح لنا". ومع اختلاف الرأي بين أبو براء ومهاب، ولكن أحداً لم يجبر الآخر على التقيد برأيه "لكل ظروفه، قد أكون أمتلك فرصة عمل وأجرة بيت منخفضة، أما أبو براء فقد يكون حاله صعب واضطر للانتقال" يوضح مهاب.

الشيخ محمد نجيب السالم، عضو سابق بالمجلس الإسلامي السوري، رأى، خلال حديث لـ عين المدينة، أن الأصل أن يجري التحفّظ على ممتلكات كفريا والفوعة لحين انتهاء الثورة والصراع في سوريا؛ وقد يجوز استخدامها عند الضرورة لإسكان المهجّرين من المناطق الأخرى، من غير عبث وتخريب. وأوضح أن "تحكم الفصائل وتصرفها بالممتلكات وعمليات استيلاء ونهب كالتي جرت في عفرين، وقبلها في بعض ممتلكات الشبيحة؛ يعني إعطاء شرعية للنظام في مصادرته ممتلكات الثوار والمعارضين، فما ننتقده نقع أيضاً فيه".

منذ إفراغ البلدتين، أصدرت هيئة تحرير الشام قراراً بمنع تعفيش أي ممتلكات، ونصبت الحواجز لذلك، ولكن سكان محليين ونشطاء رصدوا الكثير من السيارات الخارجة من هناك، وقد حُمّلت بالأغراض.

غيث السيد، ناشط إعلامي من بنش المتاخمة للفوعة، قال إن تهجير المليشيات الإيرانية كان أمراً ضرورياً، ولكني لست مع تهجير المدنيين، "ضمن الاتفاق هناك فقرة تنص على أن المدنيين الذين يبقون في المدينة لن يتعرض لهم أحد، ولكن إيران أصرت على إخراج جميع السكان". لم يتوجه سكان بنش للاستيلاء على أراضي وممتلكات في الفوعة، ولكن ضعاف النفوس عفشوا الكثير، وأفرغوا بيوت من محتوياتها، وقاموا ببيعها، يوضح غيث مستنكراً هذا الفعل.

حوالي ٥٠ ألفاً سكان كفريا والفوعة أساساً، إلا أنه تناقص مع حصارهما لقرابة 21 ألفاً (8 آلاف في كفريا و13 ألفاً في الفوعة)، وأفرغتا على دفعات بدأت بخروج نحو 300 حالة إنسانية، بالتوازي مع إخراج عدد مماثل من الزبداني ومضايا ضمن اتفاق المدن الأربع، ثم 1500 حالة إنسانية أيضاً ضمن اتفاق حلب الشرقية، وبعدها خرج 5000 مدني عبر معبر الراشدين، وتعرقل الاتفاق بعد الانفجار الذي شهدته المنطقة.

إفراغ كفريا والفوعة أسهم، بحسب السيد، إلى إعادة فتح الأوتوستراد الدولي الذي يصل إلى معبر باب الهوى الحدودي، والذي يشكل طريق تجاري هام وفر مسافة 20 كم على التجار وسائقي الشاحنات، قياساً إلى طريق معرة مصرين الذي كان يجانب كفريا والفوعة اللتين تقعان على الأوتوستراد.

الكاتب الصحفي محمد عادل الشوك اعتبر أن ما جرى في كفريا والفوعة تغيير ديموغرافي أصرت إيران عليه، وساهمت فيه الفصائل التي خاضت التفاوض، سواء شعرت أم لم تشعر. وأضاف أن "البلدتين من حق المهجرين ضمن اتفاق المدن الأربع وباقي المناطق، لأن ما حصل ربما يستغرق جيلاً كاملاً حتى يعود إلى طبيعته، فالأمور في سوريا أصبحت حرباً شبه طائفية أرادتها إيران ومن خلفها النظام".

ورغم اتجاه الرؤى لتقديم بلدتي كفريا والفوعة إلى المهجرين لحل أزمة المأوى التي يعانون منها، إلا أن الفصائل المتحكمة مازالت تدير البلدتين بطريقة عسكرية بحتة، فما تزال السواتر الترابية وسيارات الدوشكا والأسلحة الثقيلة هي المشاهد المسيطرة، ولا يوجد أي خطة أو نية، على ما يبدو في الوقت الراهن، لتسليم البلدتين لسلطة مدنية.

هذا ما يحمله ثوار دمشق وريفها في جعبتهم من نماذج وبنى اجتماعية جديدة وموروثة

محمد كساح

بعد فشل البنى الثورية في الغوطة وجنوب العاصمة في بناء نماذج للإدارة، واستسلامهم للتهجير مؤخراً، تعيش تلك البنى اليوم في شتاتها بعلاقاتها الاجتماعية التي أطرتها الثورة ثم الحرب، محافظة على الحد الأدنى من بنيتها الجديدة أو القديمة، تلك البنى دخلت في مخاضات وصراعات بينية دفعت باتجاه شكلها الحالي.

بشكل عام، شكلت الثورة نسيجاً اجتماعياً مغايراً في العديد من النقاط والمرتكزات الأساسية عن الثوب الاجتماعي السابق الذي ارتداه السوريون لعقود طويلة. وساهمت الحرب بدورها في دفع السكان في مواضع نحو تكوين علاقات جديدة أكثر تقدماً وتعقيداً من العصبيات التقليدية المتوارثة، كالولاء للعائلة الكبيرة أو القبيلة والعشيرة أو الحارة والحي، رغم تقاطع شبكتي العلاقات، وحولت في مواضع أخرى بعض هذه العصبيات إلى علاقات جديدة يغلب عليها الطابع الوطني أو العقائدي أو الفصائلي، في حين ساهمت العصبيات ذاتها كالعشائر في خلق أو توسيع التشكيلات الاجتماعية الجديدة بشكل أو بآخر.

المسجد كحزب سياسي

منذ بدايات العام الثالث للثورة، عاشت مدينة داريا المتاخمة للعاصمة دمشق تجربة جديدة آذنت بنشوء العديد من الولاءات التي لم تكن ملحوظة قبيل هذا التوقيت. وكمدينة محافظة، اشتهرت داريا بكثرة مساجدها التي افتتحت معاهد لدراسة القرآن والعلوم الشرعية، التي سمح النظام بتواجدها تحت اسم (معاهد الأسد لتحفيظ القرآن)، وكان طلاب المساجد، إضافة للمدرسين فيها، هم أكبر شريحة يمكن وصفها بالمثقفة في المدينة، التي تضم قرابة 400 ألف نسمة. الشريحة التي انشغلت سابقاً فيما بينها بمناوشات فقهية في معظمها، أنتجت الولاء للمسجد الذي طفى إلى السطح بعد الثورة كبديل عن ولاءات موروثة للحي أو العائلة الكبيرة، وإن تقاطعت معها في أحيان متعددة، ثم لتتحول هذه العلاقة (الولاء للمسجد)، بعد سنتين من الثورة تقريباً، إلى مسار آخر أقرب إلى العمل السياسي المنظم.

انخرط في المظاهرات الحاشدة، التي كانت تجوب شوارع داريا العريضة، معظم (فئات الشعب)، لكن أغلب من كان يقود هذه التظاهرات هم طلاب المساجد. ومنذ البدايات كان الانقسام (الفكري) بين خريجي أكثر من 30 مسجداً واضح المعالم؛ فدارت السجالات على مواقع التواصل وفي المناسبات العامة بين أصحاب الفكر الديني التقليدي، التابع غالباً لجماعة زيد بن ثابت برئاسة الشيخ أسامة الرفاعي (أو الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي)، وبين جماعة أخرى أكثر خبرة تعتنق أفكار جودت سعيد القائلة بمبدأ اللاعنف.

تراجع دور طلاب المساجد خلال تسليح الثورة، لتقود الفئات الوسطى، التي يتألف أغلبها من الحرفيين، غالبية المواجهات الدامية مع النظام. لكن، وبعد مجزرة داريا، استعاد الطلاب دفة القيادة منذ تأسيس المجلس المحلي لمدينة داريا، ثم كتيبة (شهداء داريا)، مع انقسامهم الذي بقي واضحاً لعدة أشهر، إلى أن قام أتباع فكرة اللاعنف بالتخلص من خصومهم بأساليب متنوعة، كتجميد الدعم، وكسبهم إلى جانبهم بالمناصب، مستخدمين دعاية وطنية تقوم على ضرورة الدفاع عن المدينة ومواجهة الحصار.

وهكذا غدا الولاء قائماً على أيدولوجيا معينة تمثلت في المجلس المحلي، بينما خضع العسكر لفصائلية قائمة على الصراع على المصالح، والمال السياسي الذي تدره سمعة داريا كمدينة صامدة.

في خطوة لاحقة، ابتلع لواء (شهداء الإسلام)، التابع للمجلس المحلي، معظم المقاتلين الذين هجروا خصمه العتيد (لواء سعد بن أبي وقاص) المؤسس الأول للعمل المسلح في داريا، لينحصر مذّاك ولاء المقاتلين، تدريجياً، في جسم عسكري واحد -لواء شهداء الإسلام-، وجهة مدنية وحدت الجميع تقريباً، هي المجلس المحلي لمدينة داريا.

في نفس الوقت طفت عصبيات أخرى استطاعت الانفصال عن الجمع، وبرزت كنوع من الشللية الناجمة عن تجمع طلاب عدد من المساجد السابقة، وحيث تربى هؤلاء في مكان واحد منذ الصغر، لتبرز أسماء مثل جماعة المصطفجية (نسبة لجامع المصطفى)، وجماعة حزقيل (مسجد يحمل نفس الاسم)، وجماعة عبد الأكرم السقا (جامع أنس بن مالك وتتبع لأفكار جودت سعيد). مارست هذه الشللية التي انضمت للمجلس المحلي وظيفة الأحزاب السياسية بشكل مصغر، حيث كانت الاجتماعات تعقد قبيل موعد الانتخابات

المحلية لتبدأ الطبخات السياسية التي كانت تنتهي غالباً بحدوث ائتلاف سياسي تشرف عليه جماعة عبد الأكرم.

سلطة القبيلة لم تتأثر

منذ بداية الثورة غادرت العشائرية قاموس منطقة جنوب دمشق، لكنها سرعان ما عادت بفعل ما يسميه نشطاء من المنطقة بالإغاثة المنهجة، التي كان مصدرها الهلال الأحمر السوري ووكالة الأونروا، وبعض الجمعيات الخيرية والمجالس المحلية كذلك.

تتوزع العديد من عشائر أبناء الجولان المحتل في معظم بلدات الجنوب الدمشقي، التي تشمل مخيم اليرموك والحجر الأسود، إضافة لبلدات الذيابية وسبينة والحسينية والبهدلية والبويضة، ومروراً بحيي التضامن والعسالي. وحين اندلعت الانتفاضة السورية، شهدت منطقة جنوب العاصمة تغيراً ملحوظاً في خطاب العشيرة، الذي حل مكانه مجتمع موحد بموجب فكر ثوري متمرد على جميع الاعتبارات الهدامة، كما يحلو لبعض الناشطين أن يؤكد.

الفترة الذهبية لهذا المنجز المتميز استمرت من نشوب الثورة وحتى انتهاء الحصار الأول ودخول المنطقة في هدنة بداية العام 2014، والتي بموجبها دخلت صناديق إغاثية للمنطقة من الهلال الأحمر، وتم توزيعها بشكل مناطقي بين أبناء البلدات الثلاث الواقعة تحت سلطة المعارضة، يلدا وببيلا وبيت سحم، بينما تركت بقية الفئات الاجتماعية النازحة من بلدات الذيابية وسبينة والبويضة، وغيرها من المناطق الواقعة تحت سيطرة النظام، تعاني من غلاء أسعار المواد الغذائية التي يحصل عليها أهالي البلدات المهادنة مجاناً، في حين تباع للنازحين بأسعار خيالية.

لم تشهد المنطقة، منذ اندلاع القتال مع النظام، تسليحاً على أساس عشائري، الأمر الذي تبدل بعد فترة من الزمن، حين تم العزف على وتر العشيرة لاستقطاب الشباب غير المنضمين لأي من الفصائل السابقة: فضم كل من فصيلي (أكناف بيت المقدس) و(العهدة العمرية) مقاتلين فلسطينين، بينما استقطبت (فرقة دمشق) في عشيرة الهوادجة من أبناء الجولان، وتشكل لواء (شام الرسول) من أبناء بلدات يلدا وببيلا و بيت سحم، أما لواء (أجناد الشام) فضم أبناء حي القدم الدمشقي.

هذه العصبية التي عادت للحياة كانت أحد أسباب توغل تنظيم (الدولة الإسلامية) في الجنوب الدمشقي، وسيطرته على الحجر الأسود ومخيم اليرموك والعسالي، فقد كانت نواة التنظيم الأساسية في بلدة يلدا، لكنه عندما نشب النزاع بين التنظيم والجيش الحر لجأ إلى الحجر الأسود، وتمت محاصرته حينها من قبل فصائل الحر، لتحدث المفاجأة التي تمثلت في وقوف عشيرة البحاترة (إحدى عشائر الجولان المحتل) مع التنظيم، كون زعيم التنظيم في المنطقة (أبو هشام الخابوري) من وجهاء هذه العشيرة، مع أن معظمهم لم يكن منتسباً لتنظيم الدولة.

مقارنة مع الأحداث الكبرى التي جرت في المنطقة الشرقية (الرقة، دير الزور) بين عامي 2013 و 2017 لا يمكن ملاحظة أي فارق أساسي بين التجربتين. في المنطقة الشرقية ساهمت سلطة العشيرة في التمكين لفصائل ضخمة، لتتحول هذه العشائر إلى الولاء لأفكار عقائدية راديكالية، لكنه ولاء على أساس المصلحة في منطقة تضم معظم الثروات الباطنية في سورية. وبرغم محاولات التنظيم المتكررة للسيطرة على العشائر، وخلق نوع من الانسجام الكامل معها، إلا أن القبلية بقيت العصبية الأهم، والتي تقوم على أساس الدم، واعتبار الإخوة وأبناء العمومة هي العصب الرئيسي للعلاقات الاجتماعية.

الولاء للفصيل كبديل عن المنطقة

في الغوطة الشرقية يبرز الولاء الجمعي للفصيل متجاوزاً أي عصبية أخرى، رغم وقوف عصبية الانتماء للمكان والولاء له خلف قسم منه. ويتقاسم في الغوطة النفوذ فصيلان كبيران، هما (جيش الإسلام) و(فيلق الرحمن)، ونتيجة للصراع بينهما قسمت الغوطة إلى ثلاثة قطاعات، دوما والمرج (سيطر عليه جيش الإسلام)، والقطاع الأوسط الذي يضم الأجزاء المتاخمة للعاصمة كجوبر وعين ترما، إضافة لعربين وزملكا وكفربطنا وحمورية والذي كان يخضع لسيطرة فيلق الرحمن.

عند اندلاع القتال بين الطرفين كانت تنصب الحواجز بين مناطق النفوذ، ويهرب الجنود الموالون ل(جيش الإسلام) من القطاع الأوسط، وبالعكس، لتنتصر أخوّة السلاح التي تشكلت منذ فترة وجيزة والرفاقية التي حملتها على الدم والحي أو البلدة، وليبقى الفصيل هو العصبية الوحيدة، مع نفي غير الموالين إلى مناطق ولائهم، حتى لو كانت غير بلداتهم الأصلية.

وصلت الفصائلية إلى القمة بتغلبها على سلطة العائلة والحي والمدينة، وقطعت معها مرحلة كبيرة إلى الحد الذي يقاتل فيه أبناء البلدة الواحدة بعضهم البعض، كنتيجة حتمية لانضمام كل طرف إلى فصيل معين، وعادة ما ينتهي الصراع بطرد عائلة الفصيل المغلوب خارج المنطقة.

تبدلت بعض الولاءات خلال سنوات الثورة والقتال، وتشكلت علاقات جديدة أقرب إلى الولاء للفكرة ضمن عمل جماعي منظم يشبه الحزب السياسي، في حين لعب الولاء للفصيل دوراً بارزاً في مناطق سيطرة المعارضة الواسعة التي غلب على سكانها في الماضي الولاء للمنطقة، بينما لم تنجح جميع التغيرات، وحتى المواجهات العنيفة، في كسر سطوة العشيرة التي بقيت صامدة، وإن كانت شهدت بعض التغيير في أحيان كثيرة، لكنه يبقى تغييراً مؤقتاً نابعاً من المصلحة الاقتصادية، أو الصراع على السلطة والنفوذ.

أرشيف المجلس المحلي لداريا

بعدسة الكاتب

الحج السوريّ ديني وسياسي ومنحة تميز

محمد سرحيل

قبيل أيام قليلة من يوم عرفة المرتقب، قدمت السعودية (منحةً ملكية) لمئتي حاج سوري، للحج هذا العام على نفقتها بشكل كامل، وتعد "الأولى من نوعها بسبب التقييم الجيد لبعثة الحج" وفق رئيس لجنة الحج العليا السورية.

تأسست لجنة الحج العليا السورية عام 2013 بعد امتناع السلطات السعودية إبرام اتفاقية الحج مع نظام الأسد، وتسليم ملف الحج للائتلاف الوطني السوري الذي قام بدوره بتأسيس لجنة الحج العليا السورية لتقوم بالإشراف على الحج السوري كاملاً وإدارته بشكل مستقلّ، وتتوزع مكاتب اللجنة في كل من الداخل السوري، لبنان، تركيا، الأردن، مصر، السعودية، الإمارات، الكويت وقطر.

بلغ عدد الحجاج السوريين عام 2015 (15) ألف حاجّ، فيما رفعت المملكة، هذا العام، العدد المسموح به إلى (19) ألف حاج. يقول مدير الحج السوري سامر بيرقدار في حديث لـ (عين المدينة)، أثبتت لجنة الحج جدارتها على مدى الأعوام الخمسة الماضية، وهي تشهد تطوراً وتحسناً في الأداء عاماً بعد عام.

وتميزت اللجنة بخدماتها وتنظيمها، حيث تم تصنيفها من بين أفضل البعثات، وقد تفرّدت دون غيرها بإطلاق نظام GPS لتتبع حافلات نقل الحجاج ومراقبة تحركاتها، وذلك بسبب ما يحصل أيام المشاعر من خروج للحافلات عن مسارها أو تعطلها أو هروب بعض السائقين.

وحول آلية اختيار قوائم المنحة، قال مدير الحج سامر بيرقدار لعين المدينة: "إن اللجنة وضعت معايير دقيقة لاختيار الأسماء، لتشمل من ضحّوا في الثورة من الجرحى وذوي الشهداء وأصحاب الخوذ البيضاء والصحفيين والدعاة، وغيرهم من المؤسسات الثورية"، إلا أنه أشار إلى استحالة استيعاب الجميع، لذا كان لا بد من وضع هذه المعايير، وأضاف: "تم تسليم المعايير للائتلاف، الذي قام بدوره بمخاطبة المؤسسات الثورية وجمع الترشيحات"، مؤكداً بأن 114 شخصاً قبلوا في المنحة من الداخل السوري، فيما توزعت المقاعد المتبقية على السوريين في دول الشتات.

وبلغت رسوم الحج هذا العام 2650 دولاراً، وهو ما يعتبره البعض تكلفة مرتفعة، في حين يراه آخرون مبلغاً مقبولاً مقارنة بتكاليف الحج في تركيا (5 آلاف دولار)، ولبنان والأردن (3 آلاف) وغيرها، مع الإشارة إلى أن اللجنة لا تتقاضى سوى رسم قدره (45) دولاراً عن كل حاج تم قبوله، وفق مسؤول في اللجنة؛ أما عن طريقة اختيار الحجاج فتميزت، عن العام الماضي، بأنها اعتمدت نظام القرعة بنسبة 35% وهو ما أتاح الفرصة لشريحة الشباب، في حين تم اختيار 65 % وفق نظام الأكبر سناً.

تسييس الحج!

عمل النظام بشتى الوسائل على استعادة ملف الحج من يد المعارضة، إلا أنه باء بالفشل، حيث أصدرت لجنة الحج التابعة له بياناً وصفت فيه وزارة الحج السعودية بـ "الوهابية"، مدّعية قيام الأخيرة بتسييس الحج ومنع الحجاج السوريين من أداء هذه الفريضة، وهو ما يكذّبه الواقع ونفته رابطة العالم الإسلامي وغيرها، كذلك أصدر مفتي حلب محمود عكام، قبل أيام، بياناً استنكر فيه "تسييس الحج ومنع الحجاج السوريين من أداء الفريضة". ولم تتوقف الادعاءات عند هذا الحد، بل تجاوزتها إلى قيام النظام بالإعلان عن فتح باب التسجيل للحج، ليخبر المتقدمين فيما بعد برفض "السعودية الوهابية" لطلباتهم، علاوة على ذلك فقد أصدر قراراً ألزم فيه الحجاج من مناطق سيطرته بمراجعة الأفرع الأمنية.

ورداً على هذه الادعاءات والحملات، قال د. نذير الحكيم رئيس لجنة الحج في حديث لعين المدينة: "مكاتبنا مفتوحة للحجاج السوريين في الداخل والخارج، وقد بلغ عدد القادمين منهم من مناطق سيطرة النظام لهذا العام قرابة (5) آلاف حاجّ"، وأضاف: "أبعدنا لجنة الحج عن التجاذبات السياسية تماماً، وقد أرادها النظام معركة سياسية، وأردناها رسالة دينية إنسانية للعالم أجمع!"

فيما لم يستطع أحد الحجاج من مدينة حلب إخفاء الجانب السياسي، عند حديثه لعين المدينة عن مشاعره المتداخلة. يقول: بعد أن حَالَ وطنُنَا السليب وغاصبوه دون اجتماعنا فيه، وبعد مضيّ أكثر من عشرة أعوام على فراق عائلتي، أخيراً التقيت هنا ببعضهم، فضلاً عن كثير من الأحبة والأصدقاء. هنا عند قبلة القلوب ومهوى الأفئدة، نقف أمام جدران الذاكرة، لنستعيد بعضاً مما علق فيها من ذكريات عن وطننا الحبيب ومدينتنا المغتصبة.

عهد التميمي: الأيقونة في زمن «الحظ»

رانيا عيسى

"عشانها هي حلوة وصغيرة وشقراء وملامحها أجنبية والإعلام الأجنبي اهتم فيها، انشهرت! علماً أنه في معتقلات زيها خرجوا من سجون الاحتلال، لكنهم محجبات ماحدن بيعرف فيهم"؛ بهذه الكلمات اختصرت صديقتي الفلسطينية تعليقها على حادثة إطلاق سراح عهد التميمي التي اشتهرت عبر مقطع فيديو يظهر صفعها لجندي إسرائيلي.

لعل أهل مكة أدرى بشعابها، لكن ماذا عن أهل الإعلام؟ فصديقتي صحفية ومراسلة حربية، في الوقت الذي يختبئ فيه أهل مدينتها غزة من القصف الإسرائيلي على القطاع تكون قد أعدت عدتها لتخرج في تغطية صحفية، "أليس لي الحق أن أكون أيقونة؟" تقول.

يعرّف قاموس الوسيط كلمة "أيقونة" بأنها صورة أو تمثال مصغّر لشخصية دينية يقصد بها التبرّك، تعود لقديسين توضع في زوايا الكنائس وتعدّ "اتصالاً مع الله" يتوجه الجميع إليها بالصلاة. نظراً لقداسة المعنى خرجت للاستخدام على نطاق أوسع، فبتنا نرى أيقونات سياسية ومجتمعية وثورية وتاريخية ودينية أو فنية، تكون قدوة في حدث ما، صامدة لا تقبل المساومة، قد يغدو صاحبها قائد رأي يبتغي من حوله محاكاة الأيقونة.

قبيل 2011 لم يكن منا أحد على دراية بأيقونات، سوى ما صنعه الإعلام عن حسن نصر الله وأكذوبة حرب تموز في 2006، ورموز أخرى من أبطال مسلسل المقاومة والممانعة. لكنّ مرحلة جديدة عايشها السوري مع انطلاقة الثورة في البلاد، تخلص إلى فرز ثنائي: فإما أن يكون مؤيداً للنظام، أو معارضاً له؛ تؤرخ بشغف اسم أول شهيد، وأول متظاهر، وأول معتقل، وأول منشق عن جيش النظام، أول من شدا بصوته منادياً برحيل الأسد، وكأنه يعدّ العدة لروي تاريخ سيرى النور في برنامج "شاهد على الحدث".

عهد التميمي بعد الإفراج عنها من سجون الإحتلال

معتقلة سورية بعد تصفيتها في سجون النظام

في الوقت الذي يسعى كل منا لبناء أيقونته الخاصة، سعى سوريون انشقوا عن النظام إلى تنظيم تظاهرات أمام سفارات النظام أو الدول الداعمة لها، مرابطين كما لو أنّ الثورة في يومها الأول، دون تحيز إلى فئة أو حزب سياسي أو طائفي، يطالبون بفتح ملف المعتقلين وإطلاق سراحهم، لكنّ الموت عاجلهم قبل بلوغ الثورة ثمارها، فيخرج أحدهم ليتساءل إن كانت تجوز الرحمة على مي سكاف المسيحية، أو فدوى سليمان العلوية، فنعود إلى مربع الفرز الأول لنجد أننا لا نجيد صناعة أيقوناتنا: نغرق في تجاذبات عن أحقية الشخص في أن يصبح "قدّيساً" يحافظ على نزاهته حتى اللحظة.

إحدى المداخل المعنية بفهم آلية خلق الأيقونة نظرية التمثيل الإعلامي (Media Representation)، كل ما نراه من شخوص ورموز تقدّم عبر الإعلام تبنى بطريقة إيجابية، تركز على صفات إيجابية تتغاضى عن كل ماهو سلبي، وقد تسعى إلى اختلاق صفات غير موجودة، ما يعني أن الشخوص المقدمة كأيقونات ليست حقيقة في المطلق، وإن كان عمر الأيقونة صغيراً، وله نصيب من الجمال يحظى بتعاطف أكبر.

(أطفال سوريا في زمن الحرب) بحثٌ نشره مركز (طوران) يوثق فيه تعداد الأطفال (دون الـ16 عاماً) الذين استشهدوا خلال الحرب وفقاً للآتي:

القصف المدفعي والصاروخي 15.720 في حلب، التفجيرات 453 في دمشق وريفها، نقص الأغذية ومواد التدفئة 643 في إدلب، 519 في حمص تحت التعذيب، بينما ذكر التقرير أن ما يفوق الـ700 طفل استشهدوا غير موثقين.

تقرير آخر أفادت به الشبكة السورية لحقوق الإنسان عن استشهاد 30 ألف طفل سوري خلال الثورة، من جملتهم الطفل عمران، الذي سعى النظام إلى احتضانه، بعد أن أصبح أيقونة تحنّط فترة البراميل المتفجرة المتساقطة على حلب، ما لبثت أن اندثرت روايته عقب مقابلة متلفزة سعى النظام لبثها بإشارة نصره المعتادة، في حين أضحت صورة الطفل إيلان الغريق "مؤذية" في نظر البعض، ليدخل في متاهات التفسير عن مدى أحقية نشر الصورة.

لا تزال صديقتي تقنع بفكرة "الحظ"، تقول: هناك صحفيون فاشلون، مواطنون لا يحتمون من قصف، طلاب أغبياء منهم من أضحى شهيداً، ومنهم من حالفه حظ بالشهرة فباتوا أيقونات، وعهد التميمي أحد المحظوظين!". تختم قائلة: «الفلسطيني من السجن إلى كاميرات الإعلام، والسوري من المعتقل عالقبر!».

عبد القادر الحمو المجنون وجامع الإتاوات في الحسكة

زين العبود

لن يكون بإمكان مؤيدي النظام في الحسكة تصور ما يجري في سوريا، رغم مرور كل تلك السنوات؛ فمركز المدينة الذي يخضع لقوات النظام وشبيحته مازال تحدد أسس الحياة فيه ميليشيا الدفاع الوطني وحدها، ويشكل قائدها عبد القادر الحمو أباً حقيقياً وملهماً لكل أصناف مجرمي وشذاذ تلك الأحياء، بجرائمه المتراكمة منذ ما قبل الثورة، وقراراته المضحكة بغبائها وعزفها خارج التاريخ والأحداث، وبحروبه التي خاضها، ويخوضها اليوم، فقط ضد أهالي حي غويران المجاور، الخاضع لسيطرة وحدات الحماية الكردية، وحصته المالية من كل نشاط في المدينة.

هجوم ميليشيا الدفاع الأخير

جرى منذ أيام، حين تسلل مجموعة عناصر من الميليشيا إلى القسم الشرقي لحي غويران في الحسكة، بعد شجار مع أحد أبناء الحي في المربع الأمني وسط المدينة، ليحرقوا -انتقاماً من الشاب- أحد منازل أقربائه، بعد إطلاق الرصاص على البيت مباشرة، وبقيادة العنصرين علي الكنج الملقب بالمزولم لإدمانه الحبوب المخدرة، وهو النسخة الأكثر شبهاً بالحمو وقائد أكبر مجموعة في الميليشيا، وحميد الحمو اليد اليمنى لابن عمه عبد القادر.

الحرب التي خاضتها المجموعة في حي غويران لا تخرج عن مسيرة عبد القادر وميليشيا الدفاع في الحسكة، منذ تأسيسها نهاية العام 2013، على أنقاض (كتائب البعث) على يد ضابط المخابرات العسكرية الملازم أول أبو حيدر، والنقيب -آنذاك- بسام العرسان، الذي جمعته علاقة جيدة بالشبيح في (اللجان الشعبية) عبد القادر الحمو، صاحب الباع في قمع المظاهرات وملاحقة الثوار، وتطورت العلاقة بعد بروز جماعته كعصابة تظهر العداء وتختلق المشاكل مع الأكراد في عدة مناطق بالحسكة، ما جعل لهم أولوية الانضمام لكتائب البعث (المقنعين)، ثم وقع الاختيار على الحمو وبعض العناصر لتدريبهم بشكل خاص بقصد تأهيلهم كقادة للمجموعات.

بدأ الحمو باكتساب قوته بعد ضم نسبة كبيرة من أصدقائه وأقربائه المشابهين له في السلوك الشائن، ثم بعد صراعات كثيرة خاضها مع مجموعات أخرى في ميليشيا الدفاع، منها مجموعة الزوري ومجموعة عامر؛ لكن الصراع الأكبر والأخير كان مع عدي وحمود الحفيان في العام 2015، عندما رأى الحمو أن هذين "تطاولوا على أسيادهم"، ثم قام بمهاجمة بيت الحفيان، واشتبك معهم لأكثر من ساعتين أودت بحياة عدي وأخيه حمود ووالدهما وابن عمهم، ليتحول حينها إلى القائد الأول الذي يخشاه الجميع لوحشيته وانفلات عناصره، الذين (يجولون ويصولون في المربع الأمني)، و(مرفوع عنهم القلم) كما يروى عن أحد ضباط فرع الأمن العسكري، بعد حادثة صدام بين عناصر من الفرع وآخرين من الميليشيا خلفت إصابات بين الطرفين.

منذ ذلك الوقت، صار مقر ميليشيا الحمو، قريباً من فرع حزب البعث في الشارع الموازي لشارع القضاة، مقصداً لوجهاء المدينة الذين توجهوا إليه مع وفد من أقربائه عشيرة الشرابية لبحث "الحد من التطاول والانفلات الأمني" لعناصره. ينقل أحد الوجهاء الذين قابلوه أن الحمو أجابهم بنوع من الاعتراف والتحدي "ما أجاني إلا البواق والسرسري"، هؤلاء اللصوص والزعران عادةً يكافئهم "المعلم أبو أحمد عند كل (مشكلة) يكونون (المنتصرين) فيها"، بغض النظر عن طبيعة المشكلة والطرف الآخر فيها.

للحمو موارد مالية كثيرة، مثل إيرادات مركز البراد الآلي الذي يحتله، والدعارة والتجارة بالمخدرات، و الإتاوات على محلات الخضار والفواكه وبسطات سوق الهال، وجزء من بسطات الشارع العام، خاصة في حارة الحموية حيث محلات الخردة والمكياجات من الدرجة الثانية، وحيث يقبض من أصحابها مبلغ 4000 آلاف ليرة كل شهر، بدعوى حمايتهم من البلدية وهيئة الرقابة والتموين. كما يعمل الحمو في الشراكة مع الكثيرين في مجالات متنوعة تصل إلى الشأن الصحي، فهو شريك في الصيدلية المركزية وصيدليات أخرى في المدينة، إلى جانب بيع بطاقات (مهمة في الدفاع الوطني)، مدتها 3 أشهر بسعر 150 ألف ليرة، للراغبين في تسهيل أمورهم أو الضرب بسيف الميليشيا.

آخر قرارات الحمو رفع السواتر، من صناديق الخشب المملوءة بالتراب والحواجز الإسمنتية في محيط المقر، لقطع الشارع ذهاباً وإياباً، تزامناً مع نشر عناصره الشائعة التي تقول، إن الأكراد سيخوضون معركة مع النظام للاستيلاء على المربع الأمني في الحسكة!، وإشاعة موازية تقول إن النظام بدأ بحل الميليشيات، وسيبدأ بالدفاع الوطني لأنهم يعتبرون أكبر ميليشيا موجودة!، رغم أن تعداد عناصرها المسجل في الحسكة 330 عنصر، وتدرب حوالي 200 عنصر آخرين جدد.

قبل الثورة، اشتهر الحمو الذي تجاوز الخامسة والثلاثين، اليوم، في حي النشوة الشرقية كتاجر حبوب مخدرة ولص دراجات نارية، رغم انتمائه لعائلة غنية تعمل بالزراعة وتجارة الغنم، ولعل ثراء أهله بالذات ما جنبه الملاحقة لفترات طويلة على القضايا الجنائية المرتبطة به، والتي تتعدى تجارة المخدرات والسرقة لتصل إلى قضايا اغتصاب وتحرش بأطفال، رغم أن زواجه الأول الذي أنتج ولداً وبنتين يعود لسنوات قبل الثورة، لكنه أنهاها في العام 2013 بقتل زوجته عبر إلقائها من بلكون بيته في الدور الثالث، ثم زواجه من اثنتين لاحقاً.

ترجمة

العائلات السورية تلهث بحثاً عن إجابات حول مصير أبنائها بينما تغلق الحكومة ملفات الاعتقال بهدوء

عبد الستار إبراهيم
عمار حمو
باريت ليموجيه
25 تموز عن موقع The Middle East Eye
ترجمة مأمون الحلبي

AFP

كان إسلام، شقيق عبد الرحمن الدباس، يرتدي كنزة تحمل كلمة واحدة (حرية) في آخر مرة تقابلا فيها عام 2012، ثم فصلت بينهما القضبان الحديدية لإحدى زنزانات سجن صيدنايا.

سُمِح لعبد الرحمن ووالدته بزيارة مدتها دقيقتان لإسلام، الذي اعتقلته قوات الأمن في شوارع داريا ذلك العام. يتذكر عبد الرحمن كيف كان إسلام يبدو ضعيفاً ونحيلاً بشكل فظيع، وكانت تلك آخر مرة يرى فيها عبد الرحمن شقيقه أو يتواصل معه، لكن الأسبوع الماضي اكتشفت العائلة أخيراً أن إسلام كان واحداً من بين عشرات الآلاف الذين ماتوا في مراكز اعتقال تديرها الحكومة منذ عام 2011.

حصل هذا الاكتشاف بعد أن قامت إحدى بنات عمه بزيارة مكتب السجل المدني في داريا الأسبوع الماضي، فتأكدت أسوأ مخاوف العائلة. يقول عبد الرحمن:" لم تستطع ابنة عمي أن تتعامل مع هذا الموقف، غادرت المكتب دون أن تأخذ معها ورقة السجل المدني: كانت صدمتها بالغة الشدة".

تكررت مشاهد مماثلة في كل أنحاء سوريا منذ شهر أيار، عندما بدأت الحكومة تغلق بحذر ملفات السجل المدني التي تخصّ آلاف المعتقلين المقبوض عليهم أو المختفين على مدار سنوات الثورة والحرب الأهلية، فاكتشفت بعض العائلات أخباراً عن أقرباء لها أثناء زيارات روتينية لمديريات السجل المدني، أو عن طريق تتبع اتصالات هاتفية غير متوقعة من لجان المصالحة المحلية. ومع انتشار هذه الأخبار، ملأت جموع الناس مكاتب التوثيق العامة، وأخذت طوابير المنتظرين تتضخم لساعات.

تؤشر اللقاءات مع عائلات المختفين، وجماعات حقوق الإنسان، والخبراء القانونيين إلى أن الحكومة تقوم حالياً بإعادة تنظيم لبيروقراطية سجلات الاعتقال المعقدة، إضافة إلى الوثائق التي قد تترك المسؤولين ذات يوم عرضة لدعاوى قانونية دولية.

ماذا فعلوا به؟

كان تقريرٌ صادر، في منتصف تموز الحالي، عن إحدى جماعات حقوق الإنسان السورية، هو أول من ادعى أن عائلات سورية بدأت تعلم بموت أحبائها المعتقلين صدفة، مع مئات من الحالات المؤكدة في دمشق وحمص واللاذقية ومعضمية الشام وحماة والحكسة. يقول فاضل عبد الغني، رئيس الشبكة السورية لمراقبة حقوق الإنسان: "في بداية تحقيقاتنا، لم نصدق الأخبار. كانت العائلات تعلم بمحض الصدفة أثناء ذهابها للقيام باستخراج أوراق عادية، حيث يبلغهم الموظف أن قريبهم تم تسجيله كشخص متوفى في ملفاتهم". ويتابع عبد الغني قائلاً، إن أعداد الموتى الذين تم التعرف إليهم ضمن قوائم السجلات المدنية تزداد كل يوم، وإن الشبكة السورية قد أكدت، حتى الآن، قرابة 350 حالة تم التعرف إليها من قبل الأقرباء.

يبدو أنه لا يوجد إجراء ثابت لإبلاغ العائلات: فمئات العائلات علمت بموت أبنائها بالصدفة أثناء زيارات روتينية إلى السجلات المدنية لتقديم ثبوتيات تخص المفقودين، وبعض العائلات الأخرى تلقت اتصالات هاتفية من لجان المصالحة المحلية تفيد أن أحد أفراد العائلة قد توفي، وتوجههم لتغيير وضع سجلهم المدني في المكاتب المحلية. وقد نوه تقرير الشبكة السورية إلى أنه لم يحدث أن تلقت أيّ عائلة رفاة أحدٍ من المفقودين، وهو ادعاء تأكده عدة مصادر تحدثت إلينا. وفي كثير من الحالات، كان سبب الوفاة المكتوب على الشهادات هو" تَوَقف القلب"

إضافة إلى ال350 حالة المؤكدة من قبل الشبكة السورية، توجد أيضاً أعداد أكبر من الحالات غير المؤكدة في عدة مدن أخرى. فأثناء الأسبوع الأخير من شهر حزيران، 30 عائلة فلسطينية سورية من مخيمات حمص وحماة -التي تتبع ثبوتياتها إدارة السلطة العامة للاجئين العرب الفلسطينيين في دمشق- تلقت اتصالات هاتفية من الوكالة تشير عليهم الذهاب فوراً إلى مكتب السجل المدني، وتغيير وضعية أبنائهم من أحياء إلى أموات.

وقيل أيضاً، إن أسماء 600 راحل ظهرت في السجل المدني في الحكسة، إضافة إلى 60 اسماً في حماة. ثم أصدر موظفون في 28 حزيران قائمة مكتوبة بخط اليد بأسماء من معضمية الشام -أشخاص معتقلين أو مختفين قسرياً من قبل قوات الأمن السورية في السنوات الأخيرة، وبعضهم منذ -2013 تعلن وفاتهم. كانت القائمة مكتوبة على ورق في أعلاه ختم وزارة الداخلية. ظهرت أسماء 300 شخص في الملف الأصلي، مع ذلك أكد موظفو السجل المدني أسماء 170 فرداً فقط ماتوا في مراكز اعتقال تديرها الحكومة.

حتى الآن ليس ممكناً معرفة المدى الكلي للتغييرات الحكومية الكبيرة على السجل المدني، لكن تتواصل عملية إغلاق الملفات، ويقال إنه أجرت لجنة المصالحة في مدينة كناكر 25 اتصالاً هاتفياً الأسبوع الماضي مع 25 عائلة لديهم معتقلين في سجن صيدنايا.

قال لنا ليث مطر، اسمٌ مستعار لناشط في مجال التوثيق العام، إن الحالات الموثقة حتى الآن تتعلق فقط "بأولئك الناس الذين يقرّ النظام أنه يعرف شيئاً ما عنهم". وبالنسبة لمعظم العائلات، معرفتهم بموت أحبائهم هي أول الأخبار التي سمعوها عنهم بعد سنوات، مع ذلك هناك آخرون ما زالوا ينتظرون.

محمد، ابن وفاء الأيوبي البالغ من العمر 21 عاماً، غادر منزل أسرته في دمشق في إحدى صباحات عام 2014، ولم يعد بعد ذلك. وبعد 5 أيام من البحث المحموم من قبل أفراد الأسرة، أغارت قوات الأمن على المنزل -ومحمد خلفهم- وفتشته بحثاً عن دليل إدانة مفترض. ذكرى وجهه، الذي لا يكاد يُميز من أثر التعذيب، لا تفارق خيال أمه منذ ذلك الوقت. "شاهدت ابني بأم عيني بعد أن تم تعذيبه وتشويهه عندما أغاروا على بيتنا"، تقول وفاء." تلك كانت حصيلة 5 أيام من التعذيب... بعد 4 أعوام، كيف يعيش؟ ماذا فعلوا به؟".

قلب الصفحة

في الحالة العادية، تقوم العائلات بصحبة الشهود بتحديث وضع السجل المدني، وليس الحكومة ذاتها. تغيير السجلات يعكس تغيراً هاماً في السياسة. تقول لمى فقيه، المديرة المفوضة في هيومن رايتس وتش عن منطقة الشرق الأوسط، إنه مسعى تقوم به الحكومة السورية "محاولةً قلب الصفحة بطريقة بالغة السطحية"، بإغلاق الملفات سعياً لتجنب المسؤولية عن جرائم محتملة ضد الإنسانية. وتضيف لمى: "الحقيقة هي أننا لن نشهد فعلياً انتقالاً سلمياً إن لم نشهد المحاسبة على جرائم تم ارتكابها في هذا النزاع".

من بين العقبات الكثيرة التي تعترض طريق أية تسوية لما بعد النزاع، يشكل مصير عشرات الآلاف من المعتقلين الذين اختفوا في السجون الحكومية واحداً من أصعب الأسئلة. وبينما من المستحيل معرفة العدد الحقيقي للناس الذين قُبض عليهم أو أُخفوا قسرياً منذ أن بدأ النزاع، فإن عدد الحالات المؤكدة رسمياً يبلغ عشرات الآلاف. فحمَّل مركز توثيق الانتهاكات الحكومة السورية مسؤولية 66922 حالة على الأقل من حالات الاختفاء القسري منذ 2011، أي بنسبة 92% من كل الحالات الموثقة، بينما تقول الشبكة السورية لحقوق الإنسان إنه تم إخفاء 81652 شخصاً بين آذار 2011 وحزيران 2018.

بالإضافة إلى حالات الإخفاء، اتُهم نظام الأسد أيضاً بارتكاب فظائع ضد المعتقلين، مع بعض الجرائم الأكثر شناعة، والمفصلة في تقرير صادر عن منظمة العفو الدولية. فاتهم التحقيق حكومة الأسد بالتعذيب وتنفيذ إعدامات خارج نطاق القانون في سجن صيدنايا. وقال تقرير منظمة العفو إنه بين الأعوام 2011 و 2016 تم تعذيب بين 5000 و 13000 شخص في سجن صيدنايا فقط، قبل أن يحاكموا شكلياً محاكمات عسكرية لمدة 3 دقائق ويعدموا شنقاً.

الحصانة على ارتكاب الجرائم

في عام 2015 رصد المجتمع الدولي لمحة مرعبة عن عالم الاعتقال السفلي الذي تديره الحكومة السورية بفعل تسريب صور "قيصر". ففي آب 2013 قام منشق عسكري -اسمه الحركي "قيصر"- بتهريب 53275 صورة من أرشيف الحكومة السورية، تظهر فيها لقطات لأجساد معذبة على يد عناصر أمنية، ووفقاً لمنظمة هيومن رايتس وتش، أمكن التعرف على 6786 ضحية من بين صور هذه المجموعة الضخمة. الأغلبية من هؤلاء الضحايا اختطفوا من قبل 5 فروع أمنية تعمل في العاصمة السورية.

أثارت الصور ضجة عالمية، وأطلقت عدداً من المبادرات الهادفة إلى تحقيق العدالة لأسر المعتقلين الذين قُتلوا في السجون الحكومية. وتعمل منظمات حديثة التأسيس، مثل (عائلات جمعية قيصر)، على تجميع أدلة وشهادات لمعتقلين من أجل الاستخدام في دعاوى مستقبلية. ينظر عبد الغني إلى الجولة الأولى لملفات القضايا المغلقة كتجربة تقوم بها الحكومة السورية لمعالجة بيروقراطية الاعتقال المنفلشة: "نعتقد أن النظام يحاول أن يسبر رد فعل المجتمع الدولي نحو سلوكه، فرد فعل ضعيف سيدفع الدوائر الحكومية لمواصلة تسجيل كل المفقودين بهذه الطريقة".

المحاكم الأوروبية

في ظل مبدأ الفضاء العالمي للمنظومة القانونية، الذي ينص على أن بعض الجرائم فيها من الفظاعة ما يكفي لأن تقوم المحاكم الأجنبية بالادعاء على الجناة، قام المدعي الألماني الأول في 8 حزيران بإصدار مذكرة توقيف بحق جميل حسن، بصفته رئيس فرع المخابرات الجوية، فالحسن يتحمل مسؤولية مباشرة عن بعض من مراكز الاعتقال الأسوأ سمعة، التي يعتقد أن آلاف الأشخاص قد عذبوا وقتلوا فيها. لكن بالنسبة لعائلات المختفين وأمهات مثل وفاء الأيوبي، فإن الإجراءات القانونية في محاكم بعيدة لا تجلب سوى القليل من السلوى أثناء البحث اليومي عن إجابات حول ما حدث لأحبتهم.

وائل ملحم الشرطي الوغد الذي ابتسم له الحظ

بين (20) شابة من خريجات المعاهد المتقدمات لمسابقة توظيف لدى وزارة تربية النظام، ظهر عضو مجلس شعبه وائل ملحم مؤكداً وعده بالتوسط لدى الوزير لتحقيق أحلام الشابات بالوظيفة.

لاقت الصورة انتشاراً هائلاً في صفحات فيسبوك الموالية، وجزمت آلاف التعليقات بأن الملحم أفضل أعضاء المجلس، وتمنت بعضها لو وجد مثله (10) أعضاء مجلس، أو (5) على الأقل، لكان "الشعب كله بخير" فهو "عصب المجلس.. ولازم تصير رئيس المجلس" لأن "الكل منافقين وانت الوحيد اللي بتحل مشاكل الناس". وتمنت خريجات معاهد متنوعة من الملحم أن يسعى لتوظيفهن "جميعاً"، خاصة أن البعض منهن "مستنايين المسابقة من 12 سنة ومن حقهن بقى يتعينو لأنه هي آخر فرصة".

قبل ملف التوظيف في وزارة التربية، انشغل الملحم بملف الجرحى وذوي القتلى في جيش الأسد أو ميليشياته، وعلى الدوام تتداول الصفحات مقاطع مصورة لمداخلات له، مهاجماً وزارات النظام: وزارة المالية لأنها تفرض الضرائب وتطالب الصناعيين بـ"فائدة الفائدة"، ووزارة التموين "اللي متعمل مشكلة على علبة متة" وتسببت ذات مرة بانقطاعها عن السوق، متهكماً "ازا المتة ما بقدر عالجا.. غريبة". وأما وزارة التربية فهي التي تحزنه على وجه خاص "ميحز بنفسي وقت روح على مطعم لاقي معلم ميشتغل كرسون أو كوميك وتاني يوم ميعلم ولادنا" وبلسان متعجل وركيك يلقي خطاباته الغاضبة.

لا تنعكس شعبية الفيسبوك هذه على الواقع في مجتمعات مؤيدي النظام في محافظة حمص، حيث يوصف الملحم بأنه "واحد من النصابين الكبار"، وأنه لا يساعد أحداً دون مقابل، وبأن الداعم المجهول المقرب من بشار الأسد هو من يفرض اسمه بالقوة، دورة وراء دورة، في قوائم المستقلين الفائزين بعضوية "مجلس الشعب" عن المحافظة، ومنذ العام 2007 وحتى اليوم. وتتواتر الرواية في سيرة الملحم عن دوره في قتل وزير الداخلية السابق غازي كنعان في العام 2005، حين كان شرطياً برتبة مساعد أول ضمن مرافقة الوزير، ليحال بعدها إلى التقاعد، ثم يظهر بعدها كمرشح، ثم عضو في المجلس.

يتحدر الملحم لأسرة فقيرة جداً، هجرت الفلاحة في قرية الشعيرات جنوب شرق حمص، واستقرت في حي وادي الذهب في المدينة، وهناك ترعرع وائل حتى حصل على الشهادة الإعدادية، ثم تطوع شرطياً أول تسعينات القرن الماضي. ومثل معظم الشرطة في دولة الأسد الأب والابن، لم يدخر العريف، ثم الرقيب، فالرقيب أول، فالمساعد، فالمساعد أول، جهداً إلا وبذله للاستفادة من كل ساعة خدمة بمزيد من الرشاوى، وإلى أن ابتسم له الحظ ونقل إلى مكتب وزير الداخلية، وقبل أن يشارك بقتله.

صار الشرطي برلمانياً، ورجل أعمال كبير يمتلك شركة إنشاءات ضخمة، وعقارات، وأراض شاسعة، ولم يتبقَ له إلا القليل وينال شهادة من كلية الحقوق، قسم التعليم المفتوح بجامعة البعث.

مجلّة عين المدينة نصف شهرية سياسيّة متنوعة مُستقلة

- لا تعبر المقالات المنشورة بالضرورة عن رأي المجلة.
- ترحب المجلة بمساهماتكم غير المنشورة سابقاً.

ayn-almadina.com
info@ayn-almadina.com

@AynAlmadina
/3aynAlmadina

عضو الشبكة السورية للإعلام المطبوع
SNP

بلدة مورك

خاص عين المدينة